

دكتور عبد الغزيز كامل

القرآن والعصر

عبد ممتاز

اقرأ





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاة



دار المعارف بمصر

هذا المعارف دار المعارف

دكتور عبّـد الغزير كامل

الاسلام والعصر

اقرأ ٣٥٩

دار المعارف بمطـر

اقرأ ٣٥٩ - رمضان - أكتوبر سنة ١٩٧٢

الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

مقدمة

* ماذا يستطيع الدين أن يقدم من عطاء للمجتمع ؟
* وكيف يستطيع لإثبات ذاته على الصعيد الفكري والعملی مستخدماً أدوات العصر ؟

هذا هو التحدى الكبير الذى يقابل الدين فى حياتنا المعاصرة ،
يقابل الإسلام كما يقابل المسيحية وغيرهما من الأديان الكبرى .

وإن رصد هذه الجهود والاستفادة المتبادلة منها أصبح محل عناية
عالمية ودراسة بدون حساسية ، ولعل أقرب الدراسات وأحدثها فى هذا
المجال ما قامت به هيئة اليونسكو فى الجزء السادس من كتابها الكبير
« تاريخ البشرية » . وهذا الجزء مخصص لدراسة القرن العشرين .

هذه المجموعة من الدراسات التى تمتد زمنياً من عام ١٩٦٤ إلى
عام ١٩٧٢ محاولات فى هذا السبيل ، أرجو أن يكون من ورائها حوار
يفتح الباب لتجارب أكثر منها خصوصية وإثماراً .

عبد العزيز كامل

٦ من شعبان ١٣٩٢ هـ

١٤ من سبتمبر ١٩٧٢ م

الفصل الأول

طريق إلى الإيمان

هذه محاولة للوصول إلى الإيمان عن طريق الفكر ، كتبها منذ فترة ، لتكون المادة العلمية لفيلم تتعاون فيه الكلمة مع الصورة والنعمة واللحن . .

من أجل هذا جاءت صياغتها وتوازن عباراتها وفقراتها على هذا النهج . وإذا كانت بعض العقبات الفنية قد حالت — حتى الآن — دون اكتمال التجربة ، فإنني لأرجو أن يكون في قراءتها بعض الفائدة ، على الأقل أن تكون منطلقاً إلى حوار حول أساليبنا في تقديم العقيدة إلى شبابنا ، أمل المستقبل في مجتمع العلم والإيمان .

وقد رجعت في مادتها العلمية إلى كتابات الأساتذة د. أحمد زكي : مع الله في السماء ، ومجموعة د. عبد الرزاق نوفل ، ونديم الجسر في قصة الإيمان ، ومؤلفات في علوم الفلك ، والنبات ، والحيوان . . . والحياة الإفريقية ، ومن أهمها مؤلفات دكتور جمال الفندى وبازيل دافيدسن .

● هذا القلق الذى يعيش فيه الإنسان :

- قلق على مصير الإنسانية من حرب ذرية شاملة .
- قلق فى الدول المتقدمة من رعب تعيش فيه ، تحاول أن تغرقه فى الترف أو تغطيه بالبطش أو سباق التسلح .
- قلق فى الدول النامية مما تعانيه من حرمان ، وما تتطلع إليه من أمل ، وما تحمله من أعباء .
- قلق فى العلاقات الدولية من تناقض يعيش فيه العالم :
- بين أطماع المستغلين وحقوق الكادحين .
- بين تقدم العلم واستخدامه فى الحرب أو السلام .
- بين وفرة الإنتاج وتوزيعه .
- بين الثقة والشك .

● هل نحن مقبلون على عالم جديد من الإخاء والسلام أو مقبلون على فناء رهيب تصبح به الدنيا قبراً كبيراً . . ؟

● عالمنا هذا

هل ينقصه العلم ؟

هل ينقصه المال ؟

هل ينقصه الإنتاج ؟

كلها آخذة فى الزيادة وإليها تتجه جهود دائبة .

● فما العنصر المفقود الذى جعل من ثمار العقل الإنسانى وكشوفه المتفتحة — وجعل من خيرات البر والبحر والسماء أسلحة خطيرة فى يد تجّار الحروب . . ؟

— الذى جعل العلم سلعة وسلاحاً وسوط عذاب فى يد القوى . . ؟

— الذى جعل المال مكديساً عند قوم يتفتنون فى إنفاقه ، ويحرمون منه قوماً هم فى أشد الحاجة إليه . . ؟

— الذى جعل الإنتاج أسراراً وحرباً وصراعاً . . ؟

— الذى جعل الطعام ترفاً لحيوانات مدلّلة ، وحرماً منه أطفالاً يتضورون جوعاً . . ؟

● عالم من العلم والجهل . . والمال والفقر . . والترف والكدح . . والوفرة والحرمان . .

● ما العنصر المفقود الذى يجعل العلم والمال والإنتاج خيرات للإنسانية تسعد بها كما تسعد بشعاع الشمس وضياء القمر وجريان الماء وجمال الزهور . . ؟

إنه الإيمان

- إيمان بالله ورسله وما أرسل من بينات .
 إيمان بالأخوة الإنسانية والكرامة الإنسانية .
 إيمان بالحرية والعدل والسلام .
 إيمان دعا إليه كلُّ نبي ورسول . .
 يتردد من فوق المآذن . . وتدقُّ به أجراس الكنائس . .
 — تردد من البيت الحرام . . وترنم به الرعاة على جبل الجليل . .
 وتجلى في سيناء . . عاش به الملايين في رحاب الأرض وأعماق الزمن . .
 — صلوات تتردد . .
 في المساجد . . في الكنائس . . في المدينة . . في الريف . . في البر . .
 في البحر . . في الصحراء . . في الجبل . . في المصنع . . في الحقل . .
 مستجيبيين لأمر الله .

● (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

● هذا الإيمان عريق في الإنسانية . . هو روحها الذي بدأت معه نشأتها الأولى .

— إيمان يردّها إلى الأب الأول — آدم عليه السلام — فتحسّ الدنيا كلّها أنها قد جاءت من ذرية نبي . .

— أنت وأنا وكل إنسان أبناء نبي كريم ، أبدعته يد الله ، ونفخ الله فيه من روحه ، وسوّاه بشراً سوياً . . واستخلفه وذريته في الأرض لينظر كيف يعملون . .

● وأنت مع هذه المكانة تذكر حدودها في حوار دار بين إبراهيم

عليه السلام وربّه، وسجله ربنا في كتابه :

(وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .

قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ ...

قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ...

عهد بلا ظلم .

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

● هذا هو القبس الإلهي . . والنور الحي بين جوانحك . . النور الذي يدعوك دائماً إلى حب الإنسان ، وتكريم الإنسان . . لا عصبية لون . . لا عصبية جنس . .

لا استعلاء . . لا استخذاء . .

فكلنا إخوة لأب واحد وأم واحدة . . لنا رب واحد . . منه النشأة الأولى وإليه المآب . .

— قيس إلهي يلتقي عنده الدين والعلم . وإليه انتهى الرأي العام العالمي من أجل الإنسان وكرامة الإنسان . .

كرامة نسمعها في قول الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

نسمعها من خاتم المرسلين في حجة الوداع :

● « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لأدم ،

وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى .

نسمعها من المسيح يخاطب بها الجموع .
 « أنتم جميعاً إخوة . . أكبركم يكون خادماً لكم . . من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » . .
 نقرأها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ :

« يولد الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق . وكلهم قد وهب الرشيد والضمير . وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح من الإخاء .. لكل إنسان الحق في الحياة والحرية والأمن الشخصي » . .

● وما دمت تحسّ كرامة الإنسان نشأة ووجوداً ، فأنت تحسّ كرامته حياة تتطلع دائماً إلى الخير وحباً له . . حباً سري عصابة حية في تاريخ الإنسانية . . تراه في أعماقها وآمادها . .

— تراه في خلق العربي القديم عندما كان يوقد النيران على رؤوس الجبال ليتهدى بها الضيوف ليلاً . .

وعندما كان يضيف إلى النار المشتعلة أخشاباً عطرية يحمل الهواء أريجها إلى بعيد ليتهدى بريحتها المعطر من كان محروماً نعمة البصر . .

— بوحى منها دعا إليه المسيح الحزاني ليمسح عن عيونهم دموعاً ، والحاطثين ليأخذ بأيديهم إلى طريق التوبة والمغفرة .

— بوحى منها دعا خاتم الأنبياء لقومه بعد أن آذوه : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

— بوحى منها دعا كل نبي ورسول إلى التكافل الاجتماعي . . وعلى هديهم تفجرت طاقات الخير في النفس الإنسانية . .

— بوحى منها كان أبو بكر وعمر يتفقدان المحتاجين ، ويسعيان إلى الضعيف والأرملة والمريض .

— بوحى منها خرج عثمان بن عفان عن تجارة يحملها ألف بعير جاءت المدينة في عام المجاعة . . فجعلها كلها صدقة على فقراء المدينة .
— بوحى منها يُعَلِّم على بن أبي طالب أصحابه نبل القول حتى مع خصومهم . ويلتمس النور في النفس وإن تراكت عليها الظلمة فيقول ناصحاً أصحابه محمداً علاقتهم بخصومهم :

« إني أكره أن تكونوا سبايين ، ولكنكم لو قُلتُم مكان سبِّكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم عن ضلالهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به » .
— عفة في القول والعمل . . وعدل في الغضب والرضا . . وتكريم للإنسان فلا يشقى جوعاً ، ولا يضل ترفاً ، ولا يعتدى تجبراً ، ولا يذل مواناً . . لا تُظْلَمُونَ ولا تَظْلَمُونَ .

● هذا هو النور المؤمن الذي سار مع الإنسان من فجر حياته . . يراه فيهتدى ويسعد ، (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) . . .

فلنحاول أن نتلمّسه خارج دائرة النبوءات المعروفة . . وفي إطار من الإنسانية في شمولها . . ذاكرين قول الله عن أنبيائه . (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) .

— هناك بعيداً في قلب الغابة العذراء تحسّ أقباسه وضياؤه . .
— عند القبائل التي ظنّها كثير من الناس بعيدة عن الحضارة عاشت قيم أخلاقية لا تملك إلا أن تردّها إلى الإيمان بالله وكرامة الإنسان .
— بعض هذه القبائل كالزائدي الذين يعيشون في قلب إفريقيا (١)

(١) وطن الزائدي في منطقة الحدود بين جمهوريات السودان والكونغو زائيرى وإفريقية الوسطى : فهو موزع حالياً بين هذه الأقطار وإن كان جغرافياً تنظمه وحدة طبيعية وبشرية .

عندهم آداب — حتى في الحروب — ما أخرج عالمنا المعاصر إلى الاقتداء بها :

غاية القتال عندهم أن ينسحب عدوك بأقل خسارة في الأرواح والعتاد ، وعليك أن تتجنب تطويقه تطويقاً كاملاً لئلا يئس من النجاة فيلقى بنفسه — عند اليأس في الميدان مهاجماً حاقداً ، أو منتقماً ضارباً .

هكذا يقاتلون ويتركون فجوة في مؤخرة الجيش كي يفلت منها الخصم إن أحس بالهزيمة .

ومن قوانين الحرب عندهم ألا يبدءوها إلا عند الأصيل ، وبعد ساعات يحلّ الظلام . ويستطيع المهزوم — في ستر الليل — أن ينسحب بأقل خسارة ممكنة .

هكذا نجد أعراف الحرب عندهم أقرب إلى العقل . . إن كان للحرب عقل . . من كثير من الحروب المدمرة التي تموج بها دنيانا .
● وفي الهند قبل احتكاكها بأوربا — لم يكونوا يحاربون ليلاً . . يمضي الجنود نهارهم محاربين . . فإذا غربت الشمس وضعوا أسلحتهم . . ثم يأخذون في الراحة والسمر ويتبادلون الطعام والشراب وينامون — بعد حرب النهار — متجاورين ، آمنين على أنفسهم وأسلحتهم من الغدر والحيانة . . الحراسة كانت حراسة الإيمان والضمير . هكذا حتى تطلع الشمس . . وعندئذ يبدءون يتناولون طعامهم ، وينظّمون صفوفهم ، فإذا ما استعدوا نفخوا بوق الحرب . أحرب هي أم رياضة ؟ أم محاولة لتقليل الدم المسفوك . . ؟

— وأنت تحس قبساً من الإيمان في كل ذلك . . قبساً من احترام الإنسان : دمه وماله .

ويتلفت عقلك وقلبك إلى مصدر هذا السمو الأخلاقي ، إلى خالق

الإنسان والإيمان ، وتتساءل عن مصير الإيمان . . عن الذين حملوا
النور إلى أعماق الغابة أو إلى الأرض القصية ، وتعود لتذكر قول
ربك عن أنبيائه : (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ) . . .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا) .

٢

● والآن يا صديقي . . .
أتحب أن تقوم معاً برحلة نتأمل فيها أنفسنا وما حولنا ؟
تري من أين نبدأ لنجمع معاً زهوراً من الحديقة الإلهية ؟
— أنت الآن تسمع ما أقول .. وأمامك مشاهد من بديع صنع الله ..
فكيف تسمع وتري . . ؟

● في أذنك الداخلية أو التيه أقبية لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم
اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في
الرأس !

وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية ، وتنتهي الأعصاب بأهداب غاية في
الدقة إلى درجة مذهلة .

— وعينك تحتوى على نحو مائة وثلاثين مليوناً من أعصاب الإبصار ،
تستقبل الضوء ، ويحميها الجفنان ذوا الأهداب والحركة غير الإرادية
التي تحفظها من الأتربة والأجسام الغريبة ، وتكسر بظلالها على العين
من حدة الضوء وتمنع جفاف العين .

وشبكية عينك التي تتلقى صورة الشيء المرئي مكونة من تسع طبقات منفصلة - هي في مجموعها أقل سمكاً من ورقة رقيقة . والطبقة الداخلية القصوى منها تتكون من أعواد ومخروطات . . وعدد الأعواد نحو ثلاثين مليوناً ، وعدد المخروطات نحو ثلاثة ملايين !

وهذه الملايين من الأعواد والمخروطات والأعصاب . . وهذه الطبقات المتتابعة - كل أولئك ينتظمه تناسب محكم فيما بينها .

وهي تتلقى الصورة مقلوبة ، إلا أنها تعيدها إلى صورتها الأولى عن طريق ملايين من خيوط الأعصاب الموصلة إلى المخ .

كل هذه التنظيمات لا بد أنها حدثت في وقت واحد ، لأنها متكاملة وبدون تكاملها يستحيل الإبصار .

وكيف استطاع كل عصب وكل خلية أن يعرف احتياجات غيره ويوائم بينها وبين نفسه ؟

ألا يدل ذلك على العليم الخبير . . ؟

فلنسمع الآن معاً إلى هذا النغم . . بأذن مؤمنة . .

ولنرَ معاً هذه المشاهد بعين مؤمنة . .

(هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرْوِنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ،

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

٣

● هذا بعض القول عن السمع والبصر وحدهما . .

وقد يقال إنها مصادقة . . أو قوة ذاتية في الأشياء . فلنعرض هذا

القول على العلم . بهذا أمرنا ربنا .

أمرنا عندما علمت خاتم أنبيائه هذا الدعاء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) .

ولو كان هناك شيء أكرم وأشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يطلبه منه ،
والمسيح كان ينادى بهذا اللقب الشريف (يامعلم) . .

والعلم باب خشية الله ، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

فليكن دعاؤنا مع خاتم المرسلين (رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .
● والآن يا صديقي . . :

أترى هؤلاء الأطفال . .
إنهم يلعبون وبين أيديهم صندوق به عشر قطع مرقمة من واحد إلى
عشرة . .

إنهم يبذلون الجهد في محاولة إخراج القطع مرتبة .
رقم واحد أولاً . . ويليه رقم اثنين . .
وهم مصممون على النجاح ومستمرون في المحاولة .
إنهم إذا نظروا إلى القطع استطاعوا ترتيبها فوراً . . ولكن كم من
الوقت يحتاجون إليه إذا اعتمدوا على المصادفة ؟ . . إنهم ينظرون إلينا
ويسألون . . فما إجابتنا ؟

● ليس بين أيدينا أيها الأبناء إلا العلم . . ونظرية الاحتمالات . .
— احتمال خروج القطعة رقم واحد أولاً هو بنسبة ١ : ١٠ .
— احتمال خروج القطعة رقم واحد وتليها القطعة رقم ٢ هو بنسبة
١ : ١٠٠ .

— احتمال خروج القطعة من واحد إلى ثلاثة مرتبة هو بنسبة
١ : ١٠٠٠ .

— وهكذا نجد أن احتمال خروج القطع العشرة مرتبة هو بنسبة
واحد إلى عشرة بلايين : (١ : ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) .

حيث البليون أو المليار ألف مليون .

بعبارة أخرى :

لو حسبنا أن المحاولة الواحدة يمكن أن تتم في عشر ثوانٍ لاحتاج الأطفال لكي يتموا العشرة بلايين تجربة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . ولو واتاهم الحظ لأتموها قبل ذلك .

ولكن لو نظروا لأتموها في عشر ثوانٍ !

إن الفرق بين الرؤية والمصادفة هنا هو الفرق بين النور والظلام . . بين الهدى والهوى .

(أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ؟

هذا في ترتيب عشر قطع خشبية مرقمة يعبث بها أطفال . . هل أحدك ذلك بعد هذا عن القلب وحجراته ووظيفته ومهمته وكفايته ؟

أتحب أن تقارن بين القلب الذي أبدعته يد الله والقلب الصناعي . . حجمه . . عدد العاملين فيه . . نفقاته . . صيانه . . كفايته ؟

هذه نافذة . . مجرد نافذة تطل بها على نفسك . (وَفِي الْأَرْضِ

آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ؟



والآن : أتحب أن نظوف معاً في هذه الحديقة الجميلة . . ؟ أترى النجل . . ؟ أنت تعلم دقتها ونظامها في مملكتها . .

إن البحث العلمى أثبت للنحل لغة تفاهم بها .. لغة قادرة على إيصال المعلومات ، فيها إرسال واستقبال .

ونحن نستطيع أن ندرس النحل بطريقتين :

الأولى : باستخدام خلايا المراقبة ، وبها نوافذ زجاجية نستطيع أن نلاحظ منها النحل بدون إزعاجها .

الثانية : باستخدام حروف أو أرقام أو ألوان معينة نميز بها النحل التى نودّ ملاحظتها فى التجربة .

ولندكر هنا بعض تجارب أجراها الباحث فون فريتش فى هذا المجال :
— أمامنا طبق به محلول مركز من مادة سكرية موضوع على مسافة خمسين متراً إلى الشمال من مستعمرة للنحل تعيش داخل خلايا المراقبة .
هاهى ذى نحلة تكتشف الطبق فتندفع إليه وترتشف منه حتى تمتلئ حويصلتها وتطير . . ولكنها تحوم حول المكان .

إنها تتعرف على ما به من مرثيات ، حتى لا تضل إليه الطريق من بعد .

هذا هو طيران التعرف .

فلنميز هذه النحلة بطلاء من لون معين ، ولتتابع ملاحظتها بعد أن تعود إلى الخلية . . إنها ترقص بين زميلات الشغالة . . إنها تتوقف قليلاً لتعطيها قليلاً من الشراب ، ثم تعود إلى الرقص . . الشغالة تراقب الرقص باهتمام شديد . . بعض الشغالة غادرت الخلية وذهبت مباشرة إلى الطبق فى الشمال لتحصل منه على نصيب .

ليس أمامنا إلا أن نفترض أن النحلة الأولى قد استطاعت عن طريق الرقص أن تنقل إلى صاحباتها معلومات تتعلق بأمرين :

الأول : وجود شراب سكرى خارج الخلية . .

الثانى : وجود هذا الشراب السكرى إلى الشمال من الخلية .

وتعود النحل إلى الخلية حيث ترقص وتنقل الأخبار من جديد . .

ولم يكتف الباحث بهذه النتيجة .. فلنتظر ما صنع مع النحل . . .
وما صنعت النحل معه .

لقد أضاف ثلاثة أطباق أخرى من الشراب السكرى نفسه ،
ووضعها على البعد نفسه إلى شرق الخلية وغربها وجنوبها . وجمع عدداً
من النحل التى عرفت طريقها إلى الشراب الأول ، وميّزها بعلامات من
الطلاء الملون ، ثم أطلقها من الخلية . . فوجد أنها ذهبت إلى الأطباق
الأربعة بدون تمييز ، وإن استرعى انتباهه أن عدد ما ذهب إلى كل
منها كان متقارباً .

فكان المعلومات التى تلقتها النحل أن الشراب السكرى موجود فى
الأطباق الأربعة .

ويزيد الباحث التجربة تعقيداً . . فيضيف إلى شراب الطبقة الأول
قليلاً من العطر . .

وتكتشف النحل التى ذهبت إليه هذه الحقيقة ، فتخبر بها
صاحباتها . . وإذا جميع النحل التى شاهدت الرقص تتجه إلى الطبقة
الأول المعطر من دون الأطباق الثلاثة الأخرى غير المعطرة . .
فكان نقل المعلومات هنا تضمن :

أولاً : وجود الشراب .

ثانياً : وجود العطر .

ثالثاً : مكان الشراب المعطر .

هذه لغة الرقص والعطر !

— ولكن . . كيف تحدد النحل الاتجاه والمسافة . . ؟

لقد كشف الباحث أن للنحل نوعين من الرقص . .

الأول : الرقصة الدائرية . وفيها تتخذ الرقصة صورة دوائر صغيرة
متتالية فى اتجاه عقرب الساعة ، ثم تعكس اتجاهها . . وهذه تستخدمها
النحل للدلالة على المسافات التى تقل عن مائة متر . .

الثانى : رقصة الذنب . وهذه على شكل 8 ، وهى لما زاد من المسافات على مائة متر .

— فإذا كانت الأزهار تبعد عن الخلية نحو ثلثمائة متر . . فإن النحلة تدور ثمانى وعشرين دورة كاملة فى الدقيقة كالحرف 8 . أما إذا كانت تبعد نحو ثلاثة كيلومترات فإنها لا تدور سوى تسع دورات فقط . وتبطىء الدورات وتقل حتى تنعدم إذا كان بُعد الأزهار عن الخلية خارج دائرة نصف قطرها خمسة كيلو مترات .

— ولاحظ الباحث أن النحلة تستطيع أن تستعين باتجاه رأسها على تحديد مكان الهدف بالنسبة إلى الخلية . . .
فإذا كان الرأس إلى أعلى كان الطعام فى اتجاه الشمس . .
وإذا كان الرأس إلى أسفل كان الطعام عكس اتجاه الشمس . .

— ولاحظ الباحث أكثر من ذلك . .
فالنحلة لا تواجه الشمس دائماً بحركة رأسها فى رفعه وتنكيسه ، وإنما تنحرف أحياناً عن هذه المواجهة يميناً أو يساراً بزوايا انحراف متباينة . .
وزاوية الانحراف هذه ثبت أن ضلعها :
— الخط الوهمى الممتد بين الخلية واتجاه الشمس ، وهو الخط الأساسى عند النحلة . .

— الخط الوهمى الممتد بين الخلية ومكان الطعام أو الزهور . .
فالنحل بهذا تستخدم الشمس فى تحديد مكانها وتحديد زاوية انحرافها عنها .

هذه هى بوصلة الشمس التى تستخدمها النحل فى صفو السماء وغيمها ، وتحديد بها سبيلها .
ولنقرأ مع هذا قول الله تعالى :

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي
سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا) . .

أرأيت إلى بعض الأعماق في قوله تعالى : (فَاسْلُكِي سُبُلَ
رَبِّكِ ذُلَالًا)

— واستمرت هذه الدراسات سنوات ولا تزال . .
عرف بها الإنسان جانباً من منطق الطير . .
وفتحت أمامنا عالماً مجهولاً . . وكم من عوالم أمامنا لا تزال مجهولة . .
وقربتنا كثيراً من تفهم قول الله تعالى في قصة سليمان والنمل :

(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا
النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا . وَقَالَ : رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ) .



● ولندع الآن النحل برياضاته وأبعاده وزواياه ورقصه وعطره
إلى عالم آخر من الرعى والزراعة والادخار والصيانة والدقة الصارمة في
تقسيم الأعمال والدفاع عن الديار .

إنه عالم النمل

وقد درس ديكسون مدينة النمل نحو عشرين عاماً في بقاع مختلفة من العالم فوجد فيها ذلك كله :

— وجد أن النمل يمارس الرعى ..

ففي مطلع الربيع يرسل النمل رسله ليجمعوا له بيض حشرة « المن » ويحفظ البيض في مستعمرته ، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره ، ثم يحمله إلى الخارج ويضعه على النباتات التي تفرز الندوة العسلية . وعند الليل يعود به النمل إلى بيته ، كما يعود الفلاح بأبقاره من المرعى كي يحلبها . وحينما تمسح النملة ظهر حشرة المن بقرونها تدرّ ذلك السائل الحلو . وتنتج هذه الحشرة نحو ثمان وأربعين قطرة من الرحيق الحلو في اليوم . ويعادل هذا نحو مائة ضعف لما تنتجه البقرة من اللبن بالنسبة إلى حجمها ! بل لقد أثبتت الملاحظة أن النمل يبني حجرات خاصة لما يحتفظ به من حشرات المن .. تماماً كما يبني الفلاح حظيرة أبقاره .. هذا هو النمل الراعى .

● ويمارس النمل الزراعة أيضاً ...

ويذكر الباحث أن النمل زرع مساحة من الأرض قدرها خمسة عشر متراً على أدق أصول الزراعة :

— مجموعة متخصصة بأن تضع البذور ..

— مجموعة مختصة بتطهير الأرض من الأعشاب الضارة ..

— مجموعة للحراسة ..

ويستوى النبات على سوقه وتمتلئ السنابل بالحلب بعد طول العناء ..

ويبدأ موسم الحصاد :

صفوف من الشغالة تعمل بدون انقطاع ..

ها هي ذى تتجه إلى العيدان فتسلكها إلى السنابل ، وتترع كل

نملة حبة وتنزل بها سريعاً إلى مخزن تحت الأرض .
وقد طلى الباحث أفراد النمل بألوان مميزة ، فوجد أن الفريق الواحد
من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز
فيستقل إلى غيره .
وتم الحصاد ..

ولكن المطر سقط أياماً .. وعاد الباحث بعد انقطاع المطر ليرقب
مستعمرة النمل فإذا به يجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل ..
كل نملة تخرج من مسكنها حاملة حبة أرز تذهب بها إلى منحدر
من الأرض يواجه الشمس وتضع عليه الحبوب حتى تجف ..
وعند الأصيل كان الأرز قد جف ، وعاد النمل ليحمل غذاءه إلى
مساكنه تحت الأرض .

فمن ألهم النمل هذا الإعجاز الذى يقوم به ؟

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا
أُمِّمٌ أَمْثَالُكُمْ . مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

٦

● تعال معى إلى رحلة فى عالم الماء .. بعد رحلتنا فى أرض حداثق
النحل ، ومزارع النمل ومراعيه .
وعالم البحر ملىء بالإعجاز ..
ولنأخذ مثالا من رحلات منتظمة لها مركز واحد وفروع متشعبة ..
كأنها خطوط سفن بحرية أو شركة طيران عالمية ..
رحلات بلغت درجة رائعة من الدقة والتنظيم ..

— إنها رحلة شعابين الماء ..

وأنت تراها في أنهارها خضراء اللون ، لا تكاد تتميز عن النباتات النامية على الضفاف ، يوفر لها لونها الأخضر قدراً من الحماية في موطن تغلب فيه الخضرة .

وعندما يكتمل نموها بين السابعة والعاشر من سنوات عمرها تنشط فجأة وتهبط مجرى النهر ، تاركة مياهه العذبة بهدوئها وكدرتها وضفافها الخضراء ، وتتجه إلى البحر .

— إن جلدها الأخضر الذي كانت تستتر به في حياتها النهرية أصبح غير ملائم لرحلة البحر .. البحر بلمعانه وزرقته ؛ فلتدع هذا الجلد الأخضر إلى جلد فضي يخفيها عن أعدائها وسط زرقة الماء ولعانه ..

وتسبح الشعابين من مختلف الأنهار في رحلات طويلة تبلغ آلاف الأميال قاصدة كلها مكاناً واحداً .. هو الأعماق السحيقة في جزر الهند الغربية إلى الجنوب والجنوب الشرقي من برمودة ..

هناك تلتقي الشعابين التي خرجت من أوروبا وإفريقية بالشعابين التي خرجت من أمريكا ..

وفي بقعة الإنسال هذه تهبط الشعابين إلى عمق يقرب من ألف متر حيث تضع الإناث بيضها في الماء ، ويتم إخصابها خارجياً في ماء المحيط ..

وكما يرسل الله الرياح لواقع تحمل فيما تحمل حبوب اللقاح فتخصب النبات .. يجعل الماء وسيلة اللقاح في هذه الكائنات البحرية ..
تبارك الله !

ماء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات ..

وهواء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات أخرى ..

وتنتهى مهمة هذا الجيل من الشعابين وتودع حياتها في المحيط .. كما

بدأتها في المحيط ..

وبعد مدة تخرج الصغار من البيض ..
 مخلوقات صلبة شفافة كأنها خيوط صغيرة لها عيون بارزة .. ملايين
 وملايين من هذه اليرقات الصغيرة ..
 وتسبح اليرقات جميعاً متجهة إلى الشمال حتى تصل إلى جزائر
 برمودة ، ومن هناك يبدأ الافتراق ، وتتخذ كل مجموعة طريقها إلى موطن
 آبائها : يرقات إفريقية وأوربا تتجه شرقاً .. ويرقات أمريكا تعود
 إلى أنهارها ..

رحلة طويلة تقوم بها اليرقات الصغيرة قد تستمر إلى الأنهار
 البعيدة أكثر من ثلاثة أعوام ، تقاوم فيها التيارات المائية العنيفة ،
 والأمواج المتدافعة ، والعواصف والرعود ، متجهة إلى موطن الآباء ..
 فإذا ما وصلت إلى شاطئ القارة أخذت تتحسس طريقها إلى النهر
 الذي جاءت منه .

وتعيش بعض اليرقات قرب المصب ، وهذه عندما تكبر تصبح
 ذكوراً .. ويصعد البعض إلى أعالي النهر ، وهذه عندما تكبر تكون
 إناثاً .. ويعيش الجنسان مفترقين طالما كانا في النهر .

فإذا ما اكتمل نموها اتجهت الإناث إلى مصب النهر وبدأت مع
 الذكور رحلة العمر إلى المحيط .. إلى الأعماق ليبدأ هناك من حياتها
 جيل جديد ..

ولم يحدث أن صيد ثعبان أمريكي في المياه الإفريقية أو الأوربية ..
 أو صيد ثعبان من الشرق في المياه الأمريكية ..
 فمن الذي أعطى هذه المخلوقات الدقيقة قدرتها على معرفة موطنها
 التي لم ترها من قبل ، وجهها خلال الرحلة الطويلة بين الأعماق التي
 ولدت فيها ، وموطن الآباء الذي تسعى إليه .. ؟

إنه الله « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

٧

● وهذه الطيور المهاجرة بتشكيلاتها الفنية الهادفة كأنما تمارس نوعاً من الفن للحياة ، وفي ذلك تبصرة وذكرى ..

— جماعات البط في صورة رأس السهم . . .

إنه تنظيم يساعد كل طائر منها على رؤية القائد وهو يتجنب في الوقت نفسه تيار الهواء الذي يحدثه الطائر الذي أمامه ..

ولكن عندما يشتد عصف الرياح فإن الصفيين ينضممان ، وتصبح المجموعة مؤلفة من خط واحد لكي تتجنب — إلى أدنى حد ممكن — تأثير الرياح العاصفة على السرب .

— وهذه الرحلات تقوم بها مئات الأنواع من الطيور نحو الجنوب في الخريف ، ونحو الشمال في الربيع ..

ويلتزم كل نوع نظاماً للرحيل ، حتى إن طلائع النوع تصل إلى هدفها في موعد لا يتغير من عام إلى عام .. ولا يتباعد أكثر من بضعة أيام .

آلاف السنين مرت على هذه الأنظمة الدقيقة .. تهاجر من أجل طعامها وهي تبحث عن الطعام الذي يلائمها على مدار السنة .. ودرجة الحرارة التي تستطيع أن تتحملها .. الجو والطعام .

ومن أشهر الطيور المهاجرة « الزقزاق الذهبي » وهو طائر رشيق طويل الجناحين صغير الحجم يتوالد في المنطقة القطبية الشمالية وفي أواخر الصيف وأوائل الخريف يهاجر الكبار منه والصغار فوق المحيط الأطلسي . فإذا صادفها جو جميل فإنها لا تتوقف إلى أن تصل إلى الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية في طريقها إلى مشتاتها في الأرجنتين وجنوبي البرازيل .

ويستطيع الزقزاق الذهبي على صغر حجمه أن يقطع بدون توقف

ألقى ميل من رحلته فوق المحيط .. وهى رحلة تعدّ عملاً خارقاً من أعمال الصبر والتحمل ..

ومن المحتمل أن تكون أطول رحلات الهجرة تلك التى يقوم بها خطاف البحر القطبي ، وهو طائر يقضى صيفه فى المنطقة القطبية الشمالية ، وشتاءه فى القارة القطبية الجنوبية ، وبهذا يصل مدى رحلته السنوية بين الوطنين إلى خمسة وثلاثين ألف ميل ..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ) .

٨

وهذه النجوم التى تراها فوقك والتى أقسم الله بمواقعها فقال :

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) .

هذه النجوم بعددها الضخم تدخل فى بناء المجرات ... وتعدد المجرات فى السماء ، ولنقصر حديثنا الآن على مجرتنا كوحدة من وحدات الكون ..

إنها تبدو للناظر بالعين المجردة كأن بها نحواً من ألى نجم . ويرتفع هذا العدد بالمناظير الكبيرة إلى ما يزيد على مائة مليون نجم ، موزعة كأنها القرص المفرطح الرقيق نسبياً عند أطرافه والذى يبلغ قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية .

ولكن ما السنة الضوئية ؟

إن سرعة الضوء في الثانية الواحدة هي ٣٠٠ ألف كيلو متر ..
وبهذا تعادل السنة الضوئية نحو عشرة ملايين ملايين
كيلو متر .

وقطر الحجرة نحو ستين ألف سنة ضوئية .. أى أنك لو ركبت
شعاعاً من الضوء سرعته ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية لما استطعت عبور
الحجرة — بدون توقف — إلا بعد رحلة تستمر مائة ألف سنة .. أعطاك
الله العمر الطويل .. هذا في حجرة واحدة ..

والنجوم غير موزعة بالتساوى داخل الحجرة .. فهي تزدحم في بعض
أجزائها ، وتشبه السحاب العالى الذى يضيء ضوءاً خافتاً ، والذى أطلق
عليه القدماء أكثر من اسم ..

فهو نهر الحجرة .. كأنه النهر الجارى .
وهو طريق التبانة أو سكة التبانة .. كأن التبن قد انتثر على أرض
من التبانة الذين يحملونه على دوابهم ..
وهو طريق اللبن عند الإفريقيين كأنه اللبن المسكوب .

والمسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال ..
وأقرب مجموعات النجوم التى تكون طريق التبانة يصل ضوءها إلينا
في عدة سنين ..

وكثير من النجوم تبعد عنا بمسافات يقطعها الضوء في نحو
ألف سنة ..

أى أنها تبعد عنا ألف سنة ضوئية ..

هل نذكر معاً أن سرعة الضوء في الثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر ..؟
هذا القرص يدور حول نفسه في الفراغ . ولعظم حجمه لم يتم أكثر
من عشرين دورة حول نفسه منذ ظهور أقدم النجوم فيه ..

أى منذ أربعة آلاف مليون سنة برغم السرعة الهائلة التى تتحرك بها
حافة القرص والتى تبلغ نحواً من مليون ميل في الساعة الواحدة ..

أرأيت إلى جانب من مواقع النجوم وبعض الحكمة في قول الله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ

عَظِيمٌ) .

وتتعدد المجرات في الفضاء الفسيح وتتكرر كلما خرجنا إلى أعماقه .

تعبير سهل « خرجنا » فلنترجمه إلى أرقام ..

أقرب المجرات إلينا هي الأندروميديا أو المرأة المسلسلة ، ويبعد هذا السديم أو هذه المجرة عنا بنحو من سبعمائة وخمسين ألف سنة ضوئية ..

أتحب أن تقوم بالرحلة ...

مرة أخرى إذا اتخذت الضوء مركباً وتحركت بسرعة ثلثمائة ألف كيلو متر في الثانية بدون توقف لما استطعت الوصول إلى الأندروميديا إلا بعد طيران - بسرعة الشعاع لمدة سبعمائة وخمسين ألف سنة .

وهذه أقرب المجرات إلينا ...

ومن المجرات ما بعده الملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين .. واستطاع العلماء تقدير هذه الأبعاد بما لاحظوه في النجوم من لمعان وخفوت على فترات من الزمن لا يختلف طولها ..

والآن أتدرى يا صديقي ما عدد هذه المجرات .. ؟

إنها مائة مليون أو تزيد في فضاء هذا الكون الواسع . ونعود إلى قول الله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ

عَظِيمٌ)

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

● من هذه العوالم الجبارة نود أن نختم رحلتنا بأصغر هذه العوالم وأخطرهما .. إلى الذرة .
لقد كنا نقيس المسافات في الكون الفسيح بالسنوات الضوئية وعشراتهما ومئاتها وملايينها .

فكيف نقيس المسافات في الذرة .. هذا العالم الصغير الذي اقترحه الإنسان ، فإذا به عالم مهول جبّار ؟
إن هذا العالم لا يقاس بالمليمتر ولا يجزء من الألف منه ، وإنما يقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر .. وتسمى وحدة القياس هذه باسم مبتدعها العالم السويدي « أنجشتروم » .

وذرة الإيدروجين ، وهي أصغر الذرات ، قطرها ١,٠٦ أنجشتروم .

— والوزن .. كيف نزن الذرة .. ؟

لأنه ليس الجرام ولا جزءاً من مليون من الجرام . ولكنه جزء من مليون مليون مليون جزء من الجرام . وذرة الإيدروجين أخف الذرات وزنها ١,٦٧ من هذه الوحدة !

— مرة أخرى عدنا إلى ملايين الملايين .. المتناهية في الضآلة بعد

أن كنا في حساب الملايين المتناهية في الضخامة والجبروت ..

● ولو قمنا برحلة في الذرة فماذا نجد ؟

— سنمر أولاً بالطبقة الخارجية وهي التي تحتوى على وحدات من

الكهربا تسمى بالإلكترونات .

وإذا ما ضاق مدار عن أن يستوعب الإلكترونات تكون مدار آخر ..

فإذا ضاق تكون مدار ثالث .. أو أفق ثالث أو سماء ثالثة في الذرة .

ونحن نتابع رحلتنا في جوف الذرة .. في فراغ .. حتى نصل إلى النواة

وهي قلبها الذي يتركز فيه وزنها .

نعم ؛ فراغ لأن النسبة بين قطر النواة وقطر الذرة هى بنسبة ١ : ١٠,٠٠٠ ، وانتشار الإلكترونات حول النواة يشبه فى صورته العامة انتشار الكواكب فى المجموعة الشمسية حول الشمس .

— إن الفراغ أكبر كثيراً من المادة .

— إن المادة فى صميمها لا تكاد تحتل من هذا الوجود شيئاً .

● ولا تحتوى النواة على الإلكترونات .. وإنما بها بروتونات موجبة الشحنة متجاورة بدون أن تباعد قوى التنافر بينها ..

وعدد البروتونات فى النواة يساوى عدد الإلكترونات .

— الإيدروجين مثلاً له غلاف واحد يدور فيه إلكترون واحد ، وفى نواته بروتون واحد .

— واليورانيوم أثقل العناصر فى الطبيعة — بنواته اثنان وتسعون بروتوناً وبمداراته اثنان وتسعون إلكترونات .

وهذه هى الأعداد الذرية للعناصر ..

● ولكن البحث أثبت أن كتل هذه الذرات تزيد من مجموع كتل ما بها من بروتونات وإلكترونات .

— لا بد إذن من وجود أجسام أخرى فى الذرة لا تحل بتعادلها الكهربى .

— وتكشف هذه الأجسام الثالثة فإذا هى « النيوترون » واللفظ يدل على التعادل أو الحياد .

— وما زالت الكشوف تتوالى من هذا الكون الصغير من الذرة ..

● من هذه النواة تنبع مصادر الطاقة الذرية التى يسخرها الإنسان فى الحرب والسلام على السواء ، منها تنبعث الإشعاعات الذرية التى عمت استخداماتها ميادين العلم والطب والزراعة والصناعة ومنها تنبعث النيوترونات التى تسلط على ذرات العناصر الحاملة المستقرة فتحولها إلى عناصر مشعة من النوع نفسه — هذه هى النظائر المشعة .

ولو قذفت ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم والبلوتونيوم بفيض من النيوترونات فإن ذراتها تنشط انشطاراً نووياً منتجة طاقة كبرى تستخدم في السلم في المفاعلات الذرية وفي الحرب في القنابل الذرية .
وبقذف بعض ذرات العناصر بالنيوترونات تتحول إلى عناصر أخرى أى تتحول المعادن بعضها إلى بعض ..

١٠

أرأيت إلى هذا الكون الكبير ؟
كل مادته من البرتون والإلكترون والنيوترون .
ما أبسط الكون وما أعظمه !
بل ما أبسط الإيمان وما أعظمه !
● على أساس من الوزن الذرى رتب العلماء العناصر المعروفة ..
رتبوها في مجموعات كل مجموعة منها في ثمانية عناصر متدرجة كأنها السلم الموسيقى .. علم وفن ..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ)
وامتلأت خانات ، وبقيت خانات فارغة ..
ويمضى الزمن ويزيد الجدول امتلاء ..
وتظهر عناصر جديدة لكل منها الخواص نفسها التى تتطلبها هذه الخانة أو تلك .

● وكانت نبوءة عجيبة من أعجب نبوءات العلم .. تحققت بأروع ما تتحقق به النبوءات وبينت جانباً من نظام الكون ودقته ..
كان الإيدروجين أخف العناصر وله الخانة الأولى ..
واليورانيوم أثقل العناصر وله الخانة الثانية والتسعون .
وفتح العلماء الخانة الثالثة والتسعين .. البلوتونيوم ..

وزادوا .. ما داموا قد كشفوا القاعدة حتى تعدوا المائة ..

— تركيب العناصر ..

— ترتيب العناصر ..

— تحويل العناصر بعضها إلى بعض .

— تحويل العنصر إلى طاقة .. عندما مس الإنسان قلب الذرة

وخرج منها المارد الجبار ..

تحولت المادة إلى طاقة .. إلى إشعاع ..

وكل إشعاع في الدنيا صور متعددة لقوة واحدة .. تلك القوة

المغناطيسية الكهربائية ..

● ويأتى أينشتين ليكافئ بين المادة والقوة ..

وتصدق التجارب قوله عندما انفجرت الذرة في قنبلة اليورانيوم ..

— المادة والقوة شيء واحد

فماذا بقى .. ؟

— بقيت الجاذبية .. ذلك الرباط الذى يربط الكون كله ..

بقى الزمان والمكان ..

ويربط أينشتين بينهما فيجعلهما شيئاً متواصلاً فى أعماق الحقيقة ..

١١

وإذا الحقائق التى كانت تبدو أمامنا متعددة متباينة تجتمع جميعاً

لتصب فى هذا المجرى الواحد الذى ينتظم الوجود كله ..

ومازال الإنسان ومعه العقل — أنضج هدايا الله إليه — يكشف فى ضوء

مصابحه كل يوم جديداً من أسرار الكون ..

— ويتأمل أينشتين هذا الكون ويقول :

« إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته ، حتى كبت ،

إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبهِ .. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة .. أحكم ما تكون .. ونحس وراءه شيئاً هو الجمال .. أجمل ما يكون ..

وهو حكمة وهو جمال لا نستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور بدائية أولية ..

وهذا الإدراك للحكمة .. وهذا الإحساس بالجمال — في روعته هو جوهر العبادة عند الناس .

إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبل حافز ..

إن ديني هو إعجابي — في تواضع — بتلك الروح السامية التي لا حد لها .. تلك التي تراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع أن تدركها عقولنا الضعيفة العاجزة .. وهو إيمان العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تراءى حيناً نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام .. ومن هنا ينبع إيمان بالله .

١٢

والآن يا صديقي ويا أخي ..

هذه رحلتنا السريعة حاولنا فيها معاً أن نتلمس على أساس علمي جوهر الإيمان بالله ..

العنصر الأساسي الذي تفتقده الإنسانية والذي يستطيع أن يحيل شقاءها سعادة وخوفها أمناً ..

إذا ما عاد الإيمان إلى القلب ،

وعادت الثقة بين الناس ،

وأخذت الشعوب حقوقها بدون عدوان أو اغتصاب ..

استطاعت أن تحيل طاقاتها إلى البناء دون الهدم ، وأن توجه الملايين
التي تنفقها على السلاح إلى معالجة مشكلات الإنسانية الكبرى ..
مشكلات الانفجار السكاني
الفقر

توفير الغذاء والسكن
القلق الذي تعانيه الإنسانية
— الصحارى يمكن تحويلها إلى حقول خضراء إذا أمكن تحويل مياه
البحر الملحة إلى عذبة بنفقات عملية ..
— البحار نفسها يمكن فلاحتها خارج المياه الإقليمية لتكون مورداً
للطعام للجنس البشرى كله ..
ويومئذ يتحقق أمل الإنسانية

طعام لكل فم
مسكن لكل أسرة
بسمة لكل شفة
علم لكل عقل
إيمان لكل قلب
ويومئذ تصبح أرضنا أرض السلام
أرض الإيمان .

الفصل الثاني

الطريق إلى مكة

هذا تعليق على فلم تسجيلي قامت به
وزارة الأنباء والإرشاد بدولة الكويت وساهم
فيه الزملاء والفنانون :

قراءة : أحمد فراج

تصوير : محمود حسن

الموسيقى التصويرية : فؤاد الظاهري

إخراج : محمود فريد

مونتاج : عاطف صبري

استجابة وإحرام :

إلى خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ..
إلى البلد الأمين الذى قال فيه محمد عليه الصلاة والسلام :
إن هذا البلد حرام ، حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام
حرمه الله إلى يوم القيامة ..
إلى المسجد الحرام الذى تتجه إليه ملايين القلوب المؤمنة ، كل يوم خمس
مرات ..

يتوجه الحجاج كل عام ..
ومن جوار البيت العتيق منذ آلاف السنين ، ارتفع صوت إبراهيم عليه
السلام مناجياً ربه :

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ) .

وكانت الاستجابة عبر الأزمان .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ
دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

البيت الذي رفع قواعده لإبراهيم وإسماعيل ودعوا عنده ربهما :
 (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا
 وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرْسِلْنَا
 مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .
 فكانت هذه الأمة المسلمة استجابة لدعوة خليل الرحمن ، ثمن
 قلوبها إلى بيت الله ، وتعمره بالطائفين والعاكفين والركع السجود .

الطواف :

وحيث تطوف محرماً تتجرد مما يتفاخر به الأفراد ويتكاثرون ..
 فثياب الإحرام صورة من صور الإخاء الإنساني ، والمساواة التي
 ترتفع فوق الجنس واللون والمكانة الاجتماعية .
 وتطوف سبعة أشواط ، بادئاً من الحجر الأسود ، تقبله بدون
 مزاحمة ، أو تستلمه أو تشير إليه ، مسرعاً في الأشواط الثلاثة الأول
 إن استطعت ، داعياً بما شئت ، وأفضل الدعاء ما أثر عن النبي عليه
 الصلاة والسلام :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
 عَذَابَ النَّارِ) .

هذه الحركة الدائرية حول الكعبة لها نظائرها في الكون كله بكواكبه
 وذراته ، بقوانينها التي تطوف بها وتدور ، وكذلك الطواف حول الكعبة
 منسك يقوم به الحاج امتثالاً لأمر ربه .
 ويطوف المحبون حول بيت ربهم ، الذي يحبهم ويحبونه في مطاف
 واحد لا يتميز فيه حاكم عن محكوم .

مقام إبراهيم وزمزم :

فإذا فرغت من طوافك ، توجهت إلى مقام إبراهيم : « واتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » ، وصليت ركعتين سنة الطواف ، ثم شربت من ماء زمزم ، البر التي ارتبط تاريخها بقصة هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام .

السعى :

وتذهب بعد هذا إلى جبل الصفا ، وترقى درجاته ، وتنظر إلى البيت العتيق تالياً قوله تعالى : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) ، ثم تسعى بينه وبين المروة مسرعاً في بطن الوادي إن استطعت ، ولغير القادر أن يسير ، أو يحمل إذا عجز عن السير .

وفي السعى ترتفع الدعوات والابتهالات إلى الله :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ترتفع بها الأصوات فوق الصفا والمروة ، وبين ذلك يدعون بما شاءوا ..

وفي السعى تعمق في نفسك المعاني التي اكتسبتها من الطواف .. فحولك إخوة من كل أقطار الأرض ، ومن كل الأعمار .. أطفال صغار تحملهم أمهاتهم وآباؤهم . شباب ممتلئ بالقوة والحيوية ، كهول يتحركون في أناة .. شيوخ يسعون محمولين ، وملء القلوب إيمان ورضا .. أجناس متعددة ، وجوهر إنساني واحد ، وبين هذين الجبلين

وردت الآثار بسعى هاجر بحثاً عن الماء لصغيرها إسماعيل ، واستجاب الله دعاءها فنبع الماء من زمزم .

وبقوة الإيمان ، أتت قلوب مؤمنة من أقصى الأرض ، وجاء الوادي الحديب ، وسعى بين الصفا والمروة ، ملايين يذكرون الأم المسلمة ، الغزلاء إلا من إيمانها وإلى جوارها الصبي الصغير .

بعد السعى :

فإذا فرغت من السعى ، انتهت بذلك المناسك في مكة قبل التوجه إلى منى وعرفات .

وبعد السعى تتباين أعمال الحاج ، حسب نية إحرامه ، من كان محرماً بالحج وحده ، أو قارناً بين الحج والعمرة ، استمر على إحرامه حتى يتم مناسك الحج جميعاً .

ومن كان محرماً بالعمرة وحدها ، تحلل من الإحرام وعليه أن يقدم هدياً ، وعلى غير القادر الصوم .

يوم التروية :

فإذا كان يوم التروية ، أحرم بالحج ، من موضعه الذي ينزل فيه ، وتوجه إلى منى ، مكثراً من الدعاء والتلبية .

ويسمى اليوم السابق للوقوف بعرفات يوم التروية ، لأن الحجيج كانوا يروون أنفسهم ويترؤون من الماء ، فتلك الأماكن لم يكن فيها إذ ذاك آبار ولا عيون ، أما الآن فقد كثر فيها الماء واستغنى الجميع عن حمله .

والسنة أن يتوجه الحجيج إلى منى يوم التروية .

عرفات :

وفي صبيحة اليوم التالي - وهو التاسع من ذي الحجة - يتوجهون إلى عرفات .

وللموقف في عرفات عبرته الكبيرة ..

فقریش فی الجاهلیة كانت تقف فی المشعر الحرام عند المزدلفة بین منی وعرفات ، ذلك لأن المشعر الحرام من الحرم ، أما عرفات فخارج حدوده . وبهذا كان للناس فی الجاهلیة موقفان : الناس جميعاً عدا قریشاً فی عرفات ، وقریش ومن كان علی دینہا یقفون فی المشعر الحرام ویقولون : نحن أهل بیت الله فلا نخرج من الحرم ..

وظنت قریش أن الرسول فی حجه سيقف عند المشعر الحرام ، كما كانت تفعل هی فی الجاهلیة ، ولكن الرسول تابع سیره إلى عرفات فصارت الموقف ، يتساوى فيه المسلمون جميعاً إلى يوم الدين .. وعلى هذه الأرض المباركة ، وفي هذا اليوم المشهود ، يوم الحج الأكبر یجتمع من المسلمین أكثر من مليون فی صعيد واحد .. أليس فی هذا تلخیص لقصة الحياة ، إقامة موقوتة ثم رحيل ..

- فی هذا اليوم استمعت الدنيا إلى صوت النبی :
 « إن دماءكم وأموالكم حرام علیکم إلى أن تلقوا ربکم كحرمة يومکم هذا ، فی شهرکم هذا ، فی بلدکم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فلیؤدها إلى من ائتمنه علیها .
 « ألا كل شیء من أمر الجاهلیة تحت قدمی موضوع . ودماء الجاهلیة موضوعة .

« وربا الجاهلیة موضوع .
 « اتقوا الله فی النساء فإنکم أخذتموهن بأمان الله .

« تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله .
 « أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم
 وآدم من تراب .
 « أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمي إلا
 بالتقوى .

« وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟
 « قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .
 فأشار بأصبعه إلى السماء وإلى الناس قائلاً : اللهم اشهد .. اللهم
 اشهد .. اللهم اشهد ..
 — ثم أذن مؤذن فصلي الظهر والعصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ..
 وركب ناقته حتى أتى الموقف عند الصخرات .. واستقبل القبلة
 واقفاً .. حتى غربت الشمس فتوجه إلى المزدلفة ..

— وفي هذا الموقف عند الصخرات ترى عرفات وقد برز فوقه
 جبل الرحمة وقد اختفت الصخور والسفح تحت غطاء بشري ..
 ترتفع منه أيد ضارعة داعية .. كأنها أغصان مؤمنة .. حفيفها دعوات
 تصاعد إلى الله بكل لسان ..

وأنت تدعو في عرفات مؤمناً بقبول الله دعائك في هذا الجمع
 الطاهر الذي ضمته جوانب الجبل ، من مشارق الأرض ومغاربها
 نفوس فرغت إلى دعاء ربها ..
 ودموع التوبة تغسل ذنوبها ..

والحج المبرور ، يطهر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. هو ولادة
 جديدة للإنسان ، تشابه ولادته الأولى في الطهر ، وتختلف عنها في عمق
 التجربة ووضوح الرؤية .

والشمس تميل إلى الغروب ، ويرتفع معها الدعاء والابتهال في
 اللحظات الأخيرة من يوم عرفات ..

المزدلفة :

وفي الإفاضة من عرفات تتدفق هذه الجموع الهائلة في اتجاه واحد إلى المزدلفة ، وفيها يقضى الحجيج ليلهم . . ويصلون المغرب والعشاء .. فإذا ما جاء الفجر ، صلّوه ، ثم توجهوا إلى منى بعد جمع الحصيات لرمى الجمار ..

وتتناثر على جانبي الطريق هنا وهناك ، جماعات مؤمنة من الركع السجود ، هم صورة حية لقول الله تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الذِّصَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

منى وأيامها :

— وفي منى يرى الحاج جمرَةَ العقبة يوم النحر (العاشر من ذي الحجة) ثم يذبح هديّته ويحلق شعره أو يقصره ويلبس ثيابه .. وهذا هو التحلل الأصغر ..

فإذا طاف طواف الإفاضة ، حل له كل شيء ، وهذا هو التحلل الأخير ..

وللحاج أن يبقى في منى بعد يوم النحر يومين أو ثلاثة ، يرى كل يوم الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة القصوى ثم التي تليها ثم جمرة العقبة . كل جمرة بسبع حصيات .. يكبر مع كل حصاة ، ويقف داعياً ذاكراً ..

وربى الجمرات كأى منسك من مناسك الحج ، لا بد أن يحدده مكان و زمان وعدد معين ..

ونذكر حين كنا فى الكعبة ، كيف طفنا حولها داعين ، واستلمنا الركنين اليمانيين ، وقبلنا الحجر الأسود ، وهنا نرجم حجراً ، رافعين صوتنا بالتلبية والتكبير ، وما الإيمان ؟ إنه الحب والبغض ، أن تحب مادعاك الله إلى حبه ، وأن تبغض ما دعاك الله إلى بغضه ..

وهنا فى الرجم التعبير العملى عن الإيمان الذى لا يحركه إلا أمر الله . وأنت حين تقذف هذه الحجرة الصغيرة ملياً ربك ، تقوم بمنسك يشترك فيه القلب واليد واللسان .. أنت بهذا ترمي الخطيئة والإثم ..

فى الرجم روح الحج : عبادة تستغرقك جميعاً .. قلبك ويدك ولسانك .. عبادة فيها الجهد المحسوس تعبير وتصديق للإيمان الكامن .. وهو ما نقوم به فى صلاتنا : عبادة يشترك فيها القلب والجوارح واللسان ..

وفى منى تجتمع الوفود الإسلامية ، ولا يزال من الممكن الاستفادة من هذه الأيام ، فى توثيق الروابط والنظر فى القضايا المشتركة ، ويدوفى منى تعاون الحكومات والشعوب الإسلامية فى رعاية الحجيج وتوفير الخدمات لهم بروح سمحة ، وتبادل الزيارات بين الوفود فى جو أخوى كريم ..

وأنت حينما تنحر ما قدمته من منى هدى تذكر قول الله تعالى :

(لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ تَتَقَوَّى

مِنْكُمْ) . وفى هذا تعظم شعائر ربك : (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ

اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

وأيام منى ليس فيها من المناسك إلا رمى الجمرات والنحر وطواف
الإفاضة إن نزلت مكة ..

ومنى واد بين جباين ، شهد صبر الرسول الأعظم ينتقل وحيداً
بين القبائل يدعو إلى الله ، وشهد بيعه العقبة مع الأنصار ، ومن بعد ،
حجة الوداع .

— وفى الحج تغطي منى خيام الحجيج .. تنتقل بينها قابو مؤمنة
تقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ..

وكان الوادى والجبال الجرداء حولك قد نبت عليها نبات بشرى
لا يضرب جذوره فى الأرض وإنما يستمد حياته من السماء ..
إن كل شئ من حولك قريب حبيب .. ومن فوقك سماء تلمع
فى ليلاها النجوم ، وأصوات الدعاء تتردد بين المضارب والدور فى فرحة
العيد الأكبر .

حياة يتدفق بها واد كان منذ أيام قاعاً صفصفاً ، ثم إذا تركه
الحجيج عاد إلى سكونه حتى العام الذى يليه ..

إلى مكة :

وتستعد للرحيل من منى إلى مكة .. وتذكر تحركات هذه الجموع
الكبيرة إلى عرفات ..

— أكثر من مليون من البشر يتحركون فى توقيت دقيق على
اختلاف ألسنتهم وألوانهم وقدراتهم ..

— وتستطيع أن تسائل نفسك عن الجهد والعناء الذى يلقاه قائد
— أى قائد — يريد أن يحرك هذه الجموع الضخمة مع كل ما بينها من
فروق القدرة واللسان والوطن .

— ليست هناك قوة تستطيع أن تفعل هذا إلا قوة الإيمان ..

- قوة تنشئ مدينة كاملة في عرفات تعمرها نهاراً .. ثم تقضى ليلها في المشعر الحرام . فإذا طلع الصباح كانوا في منى ..
- وأوامر ينفذها الفرد مستجيباً لها في أى وقت من ليل أو نهار ، ليس عليه من رقيب إلا الإيمان ..
- هذه الطاقة المؤمنة تستطيع أن تفعل للإنسانية الكثير لو وجدت مسالكها السليمة إلى التعبير ، وتوحدت من أجل الحق والخير .

طواف الإفاضة وطواف الوداع :

- ويبارح الحجاج منى ، ويؤمنون المسجد الحرام طائفين طواف الإفاضة سبعة أشواط . وذلك لمن كان محرماً بالحج أو قارناً ، أما المتمتع فعليه طواف وسعى .
- فإذا عزموا الرحيل ، عادوا إلى البيت يطوفون به طواف الوداع ، داعين الله أن يجعل حجهم مبروراً ، وذنبهم مغفوراً . وأن يكتب لهم العودة إلى بيته المحرم .
- ويتحرك بنا الركب إلى يثرب « مدينة الرسول » ذاكرين قول النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

إلى المدينة :

- ويقودنا الطريق من مكة إلى جدة .. ثم نتجه شمالاً مجاورين البحر حتى ندرك أرض بدر حيث دارت المعركة الأولى بين الحق والباطل . ونصر الله جنده مع قلة عُددهم وعددهم على الباطل المتجبر .. وثوى في أرض بدر شهداء الجهاد الذين بذلوا أرواحهم من أجل إعلاء كلمة الله ...

في المدينة :

— ويقترب بنا الطريق من المدينة وتلوح مآذن المسجد النبوي ،
القبّة الخضراء ، فوق قبر النبي عليه الصلاة والسلام .

— وتتراحم في الذهن ذكريات الماضي والشوق إلى المصطفى
عليه الصلاة والسلام .. تذكر النبي في طريق الهجرة ، حين كان آوياً
إلى الغار ليس معه إلا ربه وصاحبه وصوت القرآن يردد :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ
لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) .

تذكر كيف جاء المدينة وكان أهلها مختلفين فأخى بينهم ..
وكان يخاطبهم ويقول : « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » .
وكيف آخى بين المهاجرين والأنصار ، وسجل الله ذلك الحب
المقيم بينهم في كتابه فقال :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا
وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

— تذكر كيف بدل المدينة من تفرقها وحدة . . ومن تنازعها
تماسكاً وتعاوناً على البر والتقوى ..

— تذكر كيف وقفت المدينة تدافع عن الإسلام .. ترد كيد

المعتدين .. تودع شهداءها بالإيمان والتسليم .. وتستقبل وحى السماء باليقين والتنفيذ .. فخرج من مسجد المدينة جيل من المؤمنين نشروا أعلام الحق .. وتتابع منها الموجات النورانية يدفعها الإيمان .. فكانوا رحمة من الله مهداة ..

— وتسير في طرقات المدينة وما حولها . فتحس أمجاد الماضي وأعباء الحاضر وواجبات المستقبل .. مسجد قباء .. المسجد الذى أسس على التقوى .. جبل أحد أرض المعركة .. فبر حمزة .. سيد الشهداء .. هذه الأرض الطيبة التى احتضنت الرسالة والإيمان .

سارت أجيال وأجيال ، والتقى الماضى بالحاضر فوقها .. سار النبي وصحابته المباركة .. وارتفع صوته بالقرآن ، وانتظمت من خلفه صفوف الصلاة تضم الصفوة التى اختارها الله لصحبته .. هنا تنزل الوحي والقرآن .. وصعد الكلم الطيب والعمل الصالح .. فى هذه الأرض الطيبة جمع الله قلوب البشر على الحب والخير فى باقة إنسانية علّمت الدنيا كيف ترتفع فوق فروق الجنس واللون ، وكيف تعد المال وسيلة للرقى بالحياة بدون أن يستذل الإنسان ويطغيه ويفرق بين الأخ وأخيه ..

هنا عاش الخلفاء الراشدون .. أبو بكر وعمر وعثمان وعلي .. هنا عاش الإسلام تاريخاً نابضاً بالحياة .. استهدف الإسلام الوحدة الإنسانية المؤمنة التى نجدها فى قول الله تعالى ، وانتشر برسوله نور الحق بعد ليل الظلام .. وارتفع به صوت الإيمان ..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ
لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا) .

صلى الله عليك يا رسول الله ، أنت الرحمة المهداة ..
 عنك نأخذ مناسكنا كما علمتنا ..

(رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا
 بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا
 وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا
 تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) .

الفصل الثالث

الإسلام والعلم

مهبج الدراسة :

١ - لعل من الأفضل أن نبدأ أولاً بتحديد مفهوم الإسلام ومدى شموله ، مستنديين في هذا إلى نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وننتقل بعد هذا إلى مفهوم العلم في الإسلام ومدى شموله ومجالات بحثه . وعلى أساس من هاتين النقطتين نستطيع أن نتابع البحث إلى مكانة العلم في الواقع الإسلامي وعلاقة العلم بالمجتمع ، ثم ننهي إلى دراسة القوانين العلمية ومكانتها من الفكر الإسلامي مع نماذج تطبيقية على ذلك . وفي عرض وتحليل هذه النقاط سندكر أهم مراجعها ليستطيع - من شاء - متابعة البحث والتعمق فيه .

أولاً - تكامل الإسلام

٢ - هناك أركان ثلاثة تشترك فيها الأديان وهي : الإيمان بالله ، وبالجزاء في الآخرة ، والعمل الصالح في الدنيا^(١) . وهذه الأركان الثلاثة تجمعها الآية الكريمة :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٢) .

(١) في أصول الأديان يراجع : السيد محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي ٤٤ - ٤٥ . والكتاب من أفضل ما كتب عن أهداف الإسلام .
والصابئون في الآية معناها من خرجوا من دين إلى دين .
(٢) سورة البقرة : ٦٢ .

٣ - ومع وجود تباين في تفاصيل العمل الصالح - بنوع خاص - ومدى العناية بالجزاء الآخروي ، وتصور أهل الأديان للإيمان بالله وصفاته ، فإن هذه الأصول الثلاثة تتكامل معاً ويقوم عليها صرح الدين . ويمثل الإيمان بالآخرة ما يمكن أن نسميه بالامتداد الزماني في الفكر الديني الذي يعرض لقصة البشرية من نشأتها إلى غايتها في إجمال وإيجاز .

٤ - ويتكامل معه في الإسلام شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً . ونحن إذا قرأنا القرآن وجدناه في السورة الواحدة يذكر أموراً تتعلق بخلق الإنسان وأموراً تتعلق بالجزاء ، وأموراً تتعلق بالحياة اليومية في مناشطها المتنوعة : اجتماعية واقتصادية وسياسية . وينتقل من موضوع إلى موضوع ، كما تتتابع هذه الموضوعات في حياة الفرد اليومية . من أجل ذلك لا تنقسم سور القرآن على أساس موضوعي ، وإنما تتجمع الموضوعات وتنفرد ، كما يحدث في حياتنا اليومية : تنتقل من مشكلة سياسية إلى اقتصادية إلى بحث علمي إلى شيء من طعام وشراب . فالوحدة هنا « وحدة حيوية » إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير في هذا المقام . ويبدو هذا التفاعل الحيوي بين الفرد والقرآن إذا ذكرنا أننا نقرأ القرآن في الصلاة - وهي عماد الدين - فننتقل في قراءتنا - ونحن بين يدي الله - بين قضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية وأحداث تاريخية وعقائد تتعلق بالله والآخرة ... فالمرج بين الدنيا والآخرة يتكامل هنا مع المرج بين قضايا الحياة على تنوعها واختلافها .

٥ - وثمة تكامل ثالث يضم الأديان جميعاً ، والمسلم بنص القرآن

مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً : (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ . وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ)

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ^(١) .

٦ - وهناك تكامل رابع يتمثل في شمول الدعوة الإسلامية ، وأنها لا تقتصر على جنس دون جنس ، أو عنصر دون عنصر ، وأنها تنظر إلى الإنسان في جوهره الواحد ، وترد التفاضل إلى التقوى . وفي هذا

يقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(٢) .

وإلى هذا الأصل العريض من المساواة الإنسانية أشار الرسول عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع فقال : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . قالوا . نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب^(٣) » . وعبر الرسول عن هذا الشمول الإنساني تعبيراً عملياً حين وصف بعض صحابته فقال : « أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبش^(٤) » . وقوله : « أنا رسول من أدركت حياً ومن يولد بعدى^(٥) » .

(١) سورة البقرة : ١٣٦ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٩ .

(٤) السيوطي : الجامع الصغير ١ : ١٠٧ وميزة هذا المرجع أنه يرتب أوائل الأحاديث الشريفة بحسب حروف المعجم .

(٥) المرجع السابق نفسه .

ثانياً - تكامل العلم في الإسلام

٧ - ومن الطبيعي أن نجد في نظرة الإسلام إلى العلم التكامل نفسه الذي رأيناه في النظرة الكلية للإسلام . . . فالإيمان بالله في الإسلام « علم » ، والإيمان بالآخرة « علم » ، والذين يعرفون أمر العمل الصالح في الدنيا هم أهل « علم » . ويشرح الأصفهاني العلم فيقول : « العلم إدراك شيء بحقيقته » ، ثم يقسمه إلى نوعين : « أحدهما إدراك ذات الشيء ، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه » . والمقصود من تقسيم الأصفهاني^(١) أن الأول يقصد به معرفة ذات الشيء ، والثاني معرفة دليل يحكم به على الشيء سواء أكان دليل نفي أم إثبات . ثم يقسم العلم مرة أخرى إلى قسمين : عقلي وسمعي أو عقلي ونقل . وفي الموضوع تفصيل كثير^(٢) كل ما يهمنا منه الآن في هذه المرحلة من الدراسة أن العلم في الإسلام شامل لأمر الدنيا والآخرة ، وأنه يشمل العقيدة كما يشمل الشريعة . . . وبهذا المفهوم الواسع نستطيع أن ندرك المقصود من العلم في القرآن والسنة . ولندكر بعض نماذج على ذلك :

(١) (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْعَزَازَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٣) .

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ص ٤٨ ؛ وهذا الكتاب معجم لمفردات القرآن مرتب أبجدياً مع شرح لمعانيها في آيات القرآن .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

وتعد هذه الآية أجل شهادات القرآن على الإطلاق ، فإنها صدرت من الله وملائكته وأنبيائه وأهل « العلم » على القضية الكبرى في الإسلام وهي توحيد الله وقيامه بالقسط ، ويتضمن ذلك الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء . يقول القرطبي في تفسيره (٢ : ٤١) تمجيداً للعلم : لو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيد من العلم (وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) ، وقول النبي : « العلماء ورثة الأنبياء » و « العلماء أمناء الله على خلقه » .

(ب) (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(١) .

فأول أمر جاء الرسول : اقرأ ، وأول آلة وأداة ذكرها الله وأقسم بها : القلم في ثاني سور القرآن نزولاً وهي سورة « ن » ، وفي هذا أعظم تمجيد للكلمة المنطوقة والمكتوبة .

(ح) (إِنَّهَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِ الْعُلَمَاءِ)^(٢) .

(د) (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)^(٣) .

(١) سورة العلق : ١ - ٥ .

(٢) سورة فاطر : ٢٨ .

(٣) سورة النساء : ١١٣ .

ومن هذه الآيات يبدو الترابط القوى بين جوانب المعرفة الإنسانية مادية وروحية . بحيث نستطيع القول بأن الإسلام ينادى « بوحدة المعرفة » وتكاملها في الوقت نفسه .

٨ - ولقد فطن علماء الإسلام إلى اختلاف مصادر المعرفة الإنسانية ومستوياتها .. فميز بعضهم بين ثلاثة مستويات علمية^(١) .

(أ) المستوى الأعلى أو العلم الأعلى ، وهو علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً .

(ب) العلم الأوسط ، وهو معرفة علوم الدنيا التي تكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عايه بجنسه ونوعه كالطب والهندسة .

(ج) العلم الأدنى ، وهو الأعمال القائمة على تدريب الجوارح .

وبعبارة أخرى : ميزوا بين علوم مصدرها الوحي هو الوحي ، ويعين عليه الاستدلال العقلي ، وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد العقلي ، ولنشاط الإنسان فيها مجال كبير ؛ وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد البدني والتدريب اليدوي .

والواقع أن الأقسام متداخلة .. فالطب وبخاصة الجراحة مثلاً تعتمد اعتماداً كبيراً على الفكر والمهارة اليدوية معاً . ومع تقدم المجتمع تصبح العلوم التدريبية محتاجة إلى مهارات أكثر . وهذه لابد لها من أساس عقلي وإعداد دراسي . والفكر واليد يتعاونان معاً في تنفيذ أمر الله بعمارة الكون والرقى بالحياة .

(١) ابن عبد البر القرطبي الأندلسي . جامع بيان العلم وفضله ٢ : ٢٨ ،

والكتاب من خير ما كتب في منزلة العلم في الإسلام والصفات التي ينبغي توافرها في العالم في التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

والعلماء تقسيات غير هذه .. وإنما الذى يعنينا من هذا التقسيم الذى أورده ابن عبد البر القرطبي أنه يجمع بين علوم الدين والدنيا ، وأنه مع تعدد التقسيات يضم باستمرار - فيما أعلم - هذه الأقسام جميعاً .

٩ - ومن هنا نجد التفاعل قوياً بين العقيدة والشرعية فى الإسلام ، وبين الإيمان والعلم ، وإذا عدنا إلى الآية الكريمة :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وطالعنا ما قبلها

رأينا هذه الوحدة الفكرية بين الإيمان والعلم فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . . . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)^(١) . فى الآية إشارات إلى الظاهرات الجوية

والنبات والصخور والناس والحيوان ، وهى رموز موضوعات أصبح

كل منها علماً كاملاً ، بل مجموعة علوم مادية بحتة ، وتضمنها الآية

الكريمة ، وتربط بينها وبين خشية الله ، وتؤكد حقيقة كبيرة هى

أن العلم طريق إلى معرفة الله وخشيته ، وأن مطالعة آياته تزيد الإنسان

إحساساً بعظمة الله وقدرته .

١٠ - وانعكس هذا - كما سرى - على تاريخ الإسلام فكانت

الروابط قوية بين الدين والعلم . فالدين يدعو إلى العلم ، والعلم يؤكد

الدين . ولم نشهد في تاريخ الإسلام بعامة خصومات عنيفة كالتى شهدتها أوربا بين العلم والدين ، إلا في حالات معروفة أكثرها يتعلق بالعقيدة ، وعرضها يخرج بنا عن خط البحث الذى نحن بسبيله .

ثالثاً - العلم في المجتمع الإسلامى

١١ - أول ما يسترعى الانتباه تمجيد القرآن العلم ، وضخامة هذه المادة فى القرآن . بحيث إنها وردت ٥١ واشتقاقاتها نحو ٨٨٠ مرة (١) . هذا الرقم الذى يقرب من الألف يعطينا وحده فكرة عن مكانة هذه المادة فى الإسلام ، والثبوت الجبارة التى وثبها بالفكر الإنسانى حاملاً معه التراث القديم من الصين والهند وفارس واليونان والرومان . فى الوقت الذى تنكرت فيه أوربا لهذا التراث ، وحفظه للأجيال التالية فى أمانة وسعة أفق .

١٢ - وإذا كان الوحي مصدر القسم الأول أو الأعلى من العلم فإنه - أى الوحي - تعرض أيضاً لجوانب من القسمين الأوسط والأدنى : أعنى العلوم المعتمدة على العقل ، والمعتمدة على التدريب فى طابعها العام . أما عن مدى الإجمال والتفصيل فى هذين القسمين فموضوعهما بحث مقبل عن الإسلام والتطور ، ويكفى أن نشير الآن إلى أن العلم بمعناه الشامل كان أمراً قائماً فى فجر الإسلام وازدهاره . ولم يكن من الغريب أن يبدأ العالم بالعلوم العقلية (علوم الشريعة) ويتابع سيره فيها ، أو يتخصص بعد هذا بالعلوم العقلية أو جانب منها .. وهو فى متابعتها علوم الشريعة أو فى

(١) فى حصر ألفاظ القرآن وإحصائها وترتيبها أبجدياً وأما كن ورودها فى الآيات يرجع إلى : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وفى مادة « علم » يرجع إلى الصفحات ٤٦٩ - ٤٨١ .

تخصّصه بعلم عقلي . . بل يجمعه بين هذا ومهنة أخرى يحترفها ،
لم يكن في شيء من هذا يشعر أنه يخرج عن الخط الفكري العام في المجتمع
الإسلامي .

١٣ - وشهد الفكر الإسلامي شخصيات موسوعية أخذت بأطراف
علوم كثيرة عقلية ونقلية ، وتركت في المكتبة الإسلامية تراثاً ضخماً ،
وشخصيات غلب عليها التخصص بعلوم محدودة ، وسادتها جميعاً نظرة
تجمع بين الدين والعلم المادي - في وحدة متسقة^(١) .

١٤ - وقد يبدو من التناقض أن يجمع العالم بين التصديق المتمثل في
الوحي والبحث العلمي الموضوعي كما يبدو في العلوم العقلية ، ولكن
النظرة الإسلامية تعدّ « الوحي » أشرف مصادر المعرفة وأعلاها ...
وتعدّ الخبر الذي يأتي من الله أولى بالتصديق من الخبر الذي يأتي من
إنسان . ومن هنا نجد أن « الغيب » الذي نصّ عليه القرآن ، هو في العقيدة
الإسلامية « علم » بالمفهوم الإسلامي . وبهذا نستطيع أن نفهم قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (٢) . فهذه إذا كانت في ذاتها

(١) هناك مراجع كثيرة عن الحضارة الإسلامية منها مجموعة أحمد أمين :
فجر الإسلام وضحي الإسلام وظهر الإسلام . وعباس محمود العقاد : أثر العرب
في الحضارة الأوربية ، وآدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري
ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . وقد نشرت هيئة اليونسكو (الشعبية القومية
بالجمهورية العربية المتحدة) كتاباً ممتازاً في هذا المجال هو : الدليل الجغرافي
للقيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية - نوفمبر ١٩٦٥ . .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

« علماً » فإن معرفة الإنسان ببعضها - في التوقيت والمدى - راجع إلى إرادة الله . وإلى هذا تذهب الآيات الأولى من سورة البقرة التي تصف المؤمنين : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) . وتتابع الآيات لتبين أن فضيلة الإنسان الكبرى هي العلم كما تمثله الآية الكريمة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، ثم تجعل الوجود كله هدى « للعالمين » و « لقوم يتفكرون » و « لقوم يسمعون » و « لقوم يعقلون » . فالحواس هنا غير منفصلة عن التصديق القلبي ، بل هما طريقان للمعرفة والعلم كما تبين هذا الآية الكريمة : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » (١) .

١٥ - والاتجاه العلمي الذي يدعو إليه القرآن هو التعرف على الإنسان والكون بحسبانها مجالات البحث التي تبدو فيها آيات الله وتوضحها الآية الكريمة : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (٢) . وإذا شئنا تفسيراً لهما كان : الطبيعة والنفس . وبعبارة أخرى : الكون المادى والمجتمع البشرى .. وينقلنا هذا إلى دراسة قوانين هذين المجالين وما جاء بشأنهما في القرآن الكريم والسنة النبوية وبعض جهود علمائنا في هذا المجال .

رابعاً - القوانين العلمية

دراسة مقارنة :

١٦ - يلفتنا القرآن الكريم إلى التأمل في الوجود ودراسته دراسة لا تقتصر على البيئة المحلية التي يعيش فيها الفرد ، وإنما تشمل ما استطاع من بيئات أخرى . وفي هذا يقول الله تعالى :

(١) (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) (١) . ويتكرر هذا التوجيه الرباني فيكون من الأسباب الرئيسية وراء الرحلات التي بلغت ذروتها برحلة ابن بطوطة الطنجي ، وسجلت رقماً قياسياً لم يسبقه فيه رحالة آخر قبل عهد البخار (٧٥,٠٠٠ ميل) .

(ب) ويلفتنا إلى مظاهر الكون وما فيها من دقة ونظام فيقول : (وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١) . واضح كنموذج -
من قول الله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ » ما يجب على الفرد
من محاولة معرفة هذه المنازل ، وكيف اهتدى بها الإنسان إلى معرفة
« عدد السنين والحساب » (٢) .

فالقوانين الطبيعية المتعلقة بالمادة في هذا الكون جاء بها القرآن الكريم
في وضوح .

١٧ - وقد يكون من الأفضل في هذه المرحلة من البحث ، ونحن
بصدد القوانين العلمية ودراستها على أساس مقارن ، أن نذكر مفهوم
العلم الحديث ونرى أين يلتقى وأين يختلف مع المفهوم الإسلامى .

في الاستخدام العادى المعاصر تطلق كلمة « علم » على مجموعة
متنوعة من الأنظمة أو المناشط العقاية لها مميزات خاصة تجمع بينها .
وهذا التعريف - في شموله - لم يبدأ بتحديد شكلى . وهذه الأنظمة -
التي نطلق عليها الآن علوماً - بدأت مستقلة بعضها عن بعض ،
تستجيب كل منها لحاجة معينة . ثم بينت الملاحظة أن بعضاً من هذه
الأنظمة له ملامح خاصة مشتركة تكفى لأن نضمها كعلم واحد . وفي
استخدام هذه الأنظمة لا نجد اتفاقاً بين الباحثين على عدد بعضها علوماً
ولأنما عليها خلاف سنعرض له بعد قليل . ومن أمثلة ذلك علوم الاجتماع
والتاريخ .

(١) سورة يس : ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء : ١٢ .

ومن أهم ما يمتار به العلم إمكان الوصول فيه إلى نتائج محددة يمكن أن تخضع لنوع من الاختبار والبرهنة . ويقتضى هذا أن المواقف أو التجارب التي ندرسها في العلوم يمكن أن نعيدها مرة أخرى لنخضعها للاختبار ، وإن كان هذا الشرط لا ينطبق على كل الأحوال . فهناك علوم تقوم على الملاحظة كالفلك والجيولوجيا حيث لا يمكن إعادة الحالة أو الموقف الذي ندرسه مرة أخرى . وحيث يقنصر التحديد الدقيق على دقة الوصف .

وإذا كان من الممكن تقسيم العلوم إلى وصفية ومضبوطة descriptive and exact فإن الفارق الرئيسي بينهما هو دقة القياس ، فالقسم الأول يضم الفيزيكا (الطبيعة) والكيمياء ويتمثل - وإن كان بدرجة أقل - في النبات والحيوان . وهذا القياس يقوم - أساساً على الأرقام والوصف . وكلما كان اعتمادنا على الأرقام أكثر ، كانت درجة الدقة في الدراسة أعلى ، ولو أمكننا - بالتالي - إعادة الموقف الذي ندرسه أو التجربة لخرجنا بالأرقام والنتائج نفسها . والأنظمة العلمية التي يمكن إخضاعها للقياس الدقيق يمكن أيضاً أن تخضع للتحليل الرياضي . وهذه الإمكانية من أهم مميزات العلوم المضبوطة . أما العلوم الوصفية فأهم ما تقوم به أن تكون لنفسها منهجاً لاوصف أو التصنيف يقود إلى مزيد من الدقة في وصف وتحديد مدة الدراسة .

والعلوم بعامة لا تكتفي بالمصطلحات التي نستخدمها في الحياة اليومية ، وإنما تتخذ لنفسها اصطلاحات خاصة لها حدودها التي تحمل مضموناً محدداً . فإذا ما كان العلم دقيقاً في مفاهيمه ، دقيقاً في وصفه دقيقاً في قياسه ، أمكنه متابعة التقدم نحو كشف قوانين جديدة ، واستطاع أن ينتقل من التقرير إلى التقدير ، من الماضي إلى المستقبل ، مستعيناً بالمنهج العلمية كالتصنيف والإعادة - أو التكرار - والإحصاء والتجربة

والقياس والسبب والنتيجة (١) .

١٨ — يبدو من هذا أن ما يطلق عليه الآن « علوم » يدخل في المستوى الأوسط من التقسيم الثلاثي الذي مر بنا في الفقرة (٨) من هذا البحث ، وأن العلوم الطبيعية أو المتصلة بالكون لا خلاف في عدّها علوماً .. أما القسم الثالث فهو أدخل ما يكون في النواحي التطبيقية . ويبقى بعد هذا قسمان أو على الأصح قسم وجزء من قسم : الأول هو المستوى الأعلى المتعلق بالوحي ، والجزء البشري أو الإنساني من المستوى الأوسط وهو المتعلق بالعلوم البشرية والقوانين التي تحكم التطور البشري . ولكل من هذين الموضوعين مشكلاته الخاصة .

١٩ — فيما يتعلق بالمستوى الأعلى كان لعلماء الإسلام أكثر من منهج في تأكيد الوحي : أولهما منهج الفطرة ، والثاني منهج الاستدلال العقلي . والمنهجان يرجعان معاً إلى القرآن :

(أ) فالقرآن يعدّ الإيمان فطرة : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٢)

(ب) ويصف الدين بأنه صبغة الله في قوله تعالى :

Mac Graw Hill Encyclopedia of Science & Technology (١)

Vol. 12: 72 — 74, 1960.

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (١)

فهنا نجد تأكيداً للفطرة . ولهذا لا يُعَدّ الدين من وجهة النظر الإسلامية ظاهرة اجتماعية أوجدتها الإنسان، وإنما هو « طبيعة » فيه . ومن هنا تأتي أصالتها وعمقها وامتدادها وبقاؤها :

أصالة ترجع إلى طبيعته الأولى .
وعمق يرجع إلى أقدم عصور حضاراته .
وامتداد يسير معه في مراحل تاريخه .
وبقاء ما بقي هو في الوجود .

(ح) ويستند القرآن أيضاً إلى الدليل العقلي ؛ والعقل مناط التكليف في الإسلام ؛ والثلاثة الذين لا يجازيهم الله بأعمالهم هم : المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصغير حتى يكبر . فخطاب الدين موجه إلى العقل أولاً . وفي هذا

يقول الله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ) (٢)
ويستخدم القرآن الدليل المنطقي في قوله : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (٣) ، وقوله : (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى

(١) سورة البقرة : ١٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٩٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٢ .

ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ
عُلُوًّا كَبِيرًا^(١) . وَنَعَى عَلَى قَوْمٍ قَوْلَهُمْ : (وَقَالُوا إِن
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا
إِلَّا الدَّهْرُ)^(٢) .

ومع استخدام القرآن كلا من المتهجين : الفطرة والاستدلال العقلي ،
كان التطرف في أى منهما مدعاة إلى الانحراف في الفكر الإسلامى كما
حدث مثلاً بين المتصوفة والمعتزلة ، وبين المتصوفة والفقهاء ، عندما اعتمد
بعض المتصوفة أساساً على الحس القلبي (علم الحقائق) وفرقوا بينه وبين
العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس) ، في حين عمد المعتزلة إلى علم الكلام
واستخدام الأدلة العقلية في إثبات الله وصفاته^(٣) . وبدون أن ندخل في
تفاصيل الصراع الفكرى بين هؤلاء وهؤلاء نود أن نؤكد حقيقة كبيرة هى
وجود بذور الفطرة والاستدلال العقلي معاً في القرآن ، وأن الانحراف جاء
من الاعتماد على أحدهما دون الآخر ، وتحول الحوار الفكرى إلى صراع
مذهبي .. ومع اختلاف المناهج في إثبات حقائق الدين لم يكن هناك
خلاف على أنها « حقائق » . كان الخلاف حول كيفية الإثبات لا الحقائق
نفسها .. كانوا جميعاً مؤمنين بالله وبالبعث والجزاء مع تعدد طرق الإيمان ..
أى أن إطار الإيمان كان يجمعهم جميعاً وإن تعددت فيه مدارسهم .

٢٠ - نأتى بعد هذا إلى العلوم الكونية . ونود هنا أن نؤكد ظاهرة
رئيسية في الفكر الإسلامى ونظرتة إلى الكون ومادته من طبيعية وبشرية .
فالإسلام يعد الكون كله مخلوقاً من أجل الإنسان ومجالاً لنشاطه :

(١) سورة الإسراء : ٤٢ . (٢) سورة الحاثية : ٢٤ .

(٣) آدم متز (المرجع السابق) ١ : ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي
مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (١) .

وقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (٢) .

فمادة الكون كلها خلقها الله تعالى للإنسان ، ويسر له أسباب
تسخيرها واستخدامها لصالحه ، فإذا ما فعل هذا راداً فضل ذلك إلى الله ،
كان من عباد الرحمن ، وإلا فهو ظلوم كفار . وقد انعكست هذه
النظرة على الفكر الإسلامي انعكاساً واضحاً .. مظهره عناية بظواهرات
الطبيعة وحب لها . الكون عندهم ليس عدواً يحارب ، ولكنه مجال عمل
وميدان نشاط يبذل فيه الإنسان طاقات الفكر والجسم ليعمره ..
والناس عندهم عباد الله ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، يتفاضلون بالتقوى ..
ومن هنا لم تكن في تاريخ الإسلام مشكلات لونية عنيفة كالتى نشاهدها
الآن مثلاً في جنوب إفريقية أو الولايات المتحدة أو المستعمرات
البرتغالية .. لم يكن فيه استنزاف ثروات الأرض كما يحدث في الاستعمار

الحديد والقديم . من أمثلة ذلك وضع الأندلس في ظل الإسلام وما حدث بعد هذا في تلك الأرض .. هذه الناحية من الفكر الإسلامى لاتزال في حاجة إلى بحث عميق ، وأكتفى فيها بأن الإسلام حيث طبق تطبيقاً سليماً استخدم مناهج العلم ، وأفاد من العلم في ترقية المجتمع ورفع مستوى الحياة ، وإذا كانت هذه هي القاعدة العامة فلا يخلو الأمر من انحرافات ، ولكنها لا تصل في درجتها ولا في دوافعها إلى ما سجله الغرب في آسيا وإفريقية وأمريكا وأستراليا من حروب إبادة واستغلال هدمي للثروات .

وإذا كانت هذه هي فلسفة المسلمين في نظرهم إلى العلوم الكونية فإن مناهج البحث فيها كانت بالدقة التي تتيحها لهم إمكانياتهم العلمية المتطورة . ولقد ذهب الفكر الإسلامى بعامة إلى أن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله ، لا التفكير النظرى المجرد وحده . ودرس المرحوم محمد إقبال هذه النقطة ^(١) وبين بالأدلة التاريخية أن الزعم بأن أوربا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطئ ، وكيف أن روجر بيكون استقى علومه من جامعات الأندلس ، وأن القسم الخامس من كتابه (Opus Magus) الذي خصصه بالبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وهو من أعلام العرب في الرياضة والطبيعات (ولد حوالى ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م ، وتوفى بالقاهرة حوالى عام ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م) وذكر له ابن أبى أصيبعة في كتابه عيون الأنباء (٢ : ٩٠ - ٩٨) ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة في الرياضة والفاك والطبيعات والفلسفة والطب ^(٢) . وشهد العلماء الغربيون لابن الهيثم بفضلهم عليه ، فقالوا إن كبلر أفاد من كتبه في الضوء وانكساره .

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ترجمة عباس

محمود ١٤٢ - ١٦٧

(٢) المرجع نفسه . هامش ص ١٤٩ .

وهو أول من شرح تركيب العين وبين أجزاءها بالرسوم وسمّاها بأسماء تطلق عليها حتى الآن كالشبيكية والقرنية والسائل الزجاجي والسائل المائي (١). ونستطيع أن نرى نماذج متعددة للمنهج العلمي قائمة على نقد المعلومات السابقة على أساس من إعادة التجارب وتحقيق النصوص والنظر إلى المعرفة الإنسانية ككيان تام متطور تضيف إليه الأجيال اللاحقة جديداً ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .. هذا الاتجاه التطوري يعبر عنه أبو بكر الرازي - وإن كان حديثه منصباً على الفلسفة فيقول : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همه إلى النظر في الفلسفة ، وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته ، علم علم من تقدمه منهم وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى .. إذ كان البحث والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل » (٢).

وهذه الناحية ليست محل جدل كبير بين العلماء ، فالإضافات التي قدمها المسلمون إلى التراث الإنساني تزداد العناية بها يوماً بعد يوم ، ويزداد - تبعاً لذلك - بروز الجهد الإسلامي في التراث العالمي .

٢١ - إلا أن الجانب الذي يحتاج إلى وقفة أطول هو القوانين البشرية أو قوانين المجتمع .. ولم يحدث عليها حتى الآن اتفاق بين العلماء (تراجع فقرة ١٧) . وترتب على هذا أن اختلفوا في وضع التاريخ والاجتماع بين « العلوم » المضبوطة أو على الأقل الوصفية . ولعله أن الأوان لإعادة النظر في هذا الموضوع .

موضوع قوانين المجتمع يمكن أن ينظر إليه من زاويتين :

(أ) هل هناك « أولاً » قوانين لتطور المجتمع ؟

(ب) ما هي هذه القوانين وكيف نصل إليها ؟

(١) مادة : ابن الهيثم : الموسوعة الميسرة ص ٢٩ .

(٢) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين (مترجم) ص ١٨٥ - ١٨٦ .

ولعل مشكلة الزاوية الثانية أشد من مشكلة الزاوية الأولى .. فع الاتجاه التجريبي في العلوم أخذت الجهود تبذل في معرفة العوامل المؤثرة في تطور المجتمع . ولم تعد دراسة التاريخ والمجتمعات البشرية مقتصرة على مجرد سرد الحوادث .. التاريخ لم يعد مجرد حقائق متتابعة كأنها شريط سينمائي ليست فيه حبكة ولا هدف . وكان لابد للتاريخ أن يتطور من مرحلة جمع المعلومات إلى ربطها وتحليلها ثم تفسيرها ..

وفي التفسير تعددت المدارس وأعطت التاريخ أكثر من تفسير . هناك التفسير الديني والجغرافي والجنسي (العنصري) والاقتصادي والنفسي والتاريخ المركب^(١) .. ولكل من هذه التفسيرات دعائها والمؤلفات التي وضعت فيها .. وفي نطاق التفسير الواحد تتعدد أيضاً اتجاهات الكتاب : ففي التفسير الجغرافي - على سبيل المثال - نجد الحتمية الكلاسيكية والإمكانية أو الاحتمالية والحتمية الجديدة ، وإن كان الاتجاه الأكبر الآن نحو الإمكانية التي تعطي جهد الإنسان ونشاطه مجالاً واسعاً ، وتجعل له الصدارة على مؤثرات البيئة الطبيعية ..

ومن الطبيعي أن يحاول دعاة كل تفسير من هذه التفسيرات إثبات وجهة نظرهم وعرض أحداث التاريخ بما يؤكد هذه الوجهة . وإذا ما كانت الدراسة على بيئة محدودة المدى فإن القدرة على التفسير تصبح أيسر نسبياً - وهذه القاعدة العامة إذا كان من الممكن تطبيقها بسهولة فيما مضى ، فإن العالم المترابط الآن يجعل التفسير الموضوعي المجرد بعيداً عن الصواب . فالعالم الآن أصبح كالصندوق الرنان تردد في جوانبه كلها أية طريقة عليه .. ويلقى هذا عبثاً كبيراً على دراسة قوانين التاريخ ..

٢٢ - وأبادر فأقول إن دراسة قوانين التاريخ أو قوانين المجتمع ينبغي أن يراعى فيها جانبان :

(١) ول ديورانت : مناهج الفلسفة (مترجم) ٢ : ٥١-٥٧ . وانظر أيضاً : حسن عثمان : منهج البحث التاريخي - دار المعارف بمصر .

(أ) الجهد البشرى المبذول في تطوير المجتمع .

(ب) النتائج المترتبة على هذا الجهد وارتباطها به ارتباطاً « حتمياً » .
 أى أن حتمية هذه القوانين لا تأتي من سلبية الفرد ولكن من إيجابيته
 التي هي جزء أساسي فعال في الوصول بالتجربة البشرية إلى نتائجها ..
 ذلك لأننا لو سلمنا بحتمية القوانين وسلبية الإنسان ، لكننا من حيث
 لا ندرى — أو ندرى — قد رجعنا إلى القول بسلبية الإيمان بالقضاء والقدر ،
 لا بإيجابيته . إن القدرية السلبية في الفكر الإسلامي يقابلها القول بحتمية
 القوانين مع سلبية الإنسان في الفكر المعاصر .. فلا فرق هنا علمياً بين
 « القدرية السلبية » و « الحتمية » على إطلاقها . وإنما الذي يؤكد الإسلام
 مع الإيمان بالقضاء والقدر هو إيجابية الإنسان وارتباط هذا بالنتيجة
 في الدنيا والجزاء في الآخرة ، وصدق الله :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (١) .

هناك إذن ارتباط قوى — بل أقول تكامل — بين وجود القوانين التي
 يسير بها المجتمع وبين إيجابية الفرد والجماعة . ارتباط بين حتمية القوانين
 والجهد الإيجابي المبذول .. بحيث لو تخلف الفرد أو الجماعة عن بذل
 الجهد الصحيح في مداه ونوعيته ، لما استطاع المجتمع الوصول إلى النتائج
 التي يستهدفها .

٢٣ — بهذا الضوء نستطيع أن نعود إلى القرآن الكريم ، لنحاول أن
 ندرس فيه هذه الزاوية . وستخذ نموذجاً لهذه الدراسة من سورة
 إبراهيم . وسبب اختيار هذه السورة بالذات أنها من السور التي تدرس
 مظاهر التفاعل بين الرسل والشعوب بدون أن تحدد في سياق القصة اسم
 نبي أو شعب .. ويأتي هذا بعد أن تذكر السورة الكريمة عدة أنبياء

وتلخص قصصهم معاً ، وتبين مظاهر التفاعل ثم تنهى بعد هذا بنتيجة ..

وبعبارة أخرى نرى قصة متكررة في تاريخ الإنسانية قد تختلف في تفاصيلها من شعب إلى شعب ، ولكن هناك سمات عامة أو «قوانين» تحكم هذا الصراع الذى يحدث بين الدعوة الجديدة والقوى التقليدية الموجودة في المجتمع . ولنعرض معاً هذه المراحل :

(١) (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (١) .

فالصورة أمامنا متكررة في أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله .. والمشهد الأول فيها مجيء الرسل إلى أقوامهم ، فلا يجدون منهم أول الأمر إلا التكذيب والشك . ولا ييأس الرسل من هذا وإنما يتابعون دعوة قومهم إلى الحق مستندين في هذا إلى أكثر من دليل ، فلا يجدون من قومهم مرة أخرى إلا التكذيب ومحاولة التشكيك في هذه الأدلة وصرف أنظار الناس عنها . وفي هذا يقول الله تعالى :

(ب) (قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أِنِّي إِلَهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
 مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا
 بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ
 مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا
 أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
 وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

(ح) واضح من هذا أن الصراع حدث ، وأن هناك إيذاء .. الرسل
 يدعون قومهم ، والذين يسيطرون على مقدرات القوم متمسكون
 بما هم فيه لا يريدون تغييراً ، وأنهم مدوا أيديهم بالإيذاء
 إلى الرسل . ويصل هذا الإيذاء إلى الإخراج من الوطن
 أو التهديد به كما توضحه الآيات التالية :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا
 أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ .
 وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
 وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) .

(د) تتابع بعد هذا مشاهد القصة ، وبقيتها في الآخرة مرتبطة بما حدث في الدنيا ، مؤكدة ضرورة حرية الإرادة في الفرد ، وثورته على الظلم الواقع عليه . وفي هذا يقول الله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا :
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) .

ثم تبلغ القصة ذروتها حين لا يتبرأ بعضهم من بعض فقط ، ولكن حينما يتبرأ منهم الشيطان نفسه قائلا : (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي
وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) .

ولو أردنا أن نلخص القصة كلها ونحاول أن نخرج منها بقوانين ،
لوجدنا أولا : مايلقاه أصحاب الحق من مقاومة وعنف .. هذا القانون
الذي عبر عنه القرآن الكريم في أكثر من آية مثل قوله تعالى :
(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقَهَا كَذِبَتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (١) هو القانون الذي حمل في
التاريخ أكثر من اسم ، مش قانون الثورة والثورة المضادة .. عبر عنه ورقة
ابن نوفل عندما ذهب إلى خديجة تصحب النبي عليه الصلاة والسلام تخبره
عن الوحي الذي أنزل عليه فقال ورقة : « والذي نفسي بيده إنك لنبي

هذه الأمة ، ولقد جاءك الناسوس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبتنه ولتؤذيتنه ولتخرجتنه ولتقاتلتنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه^(١) .

٢٤ - قانون آخر يمكن أن نخرج به من آيات متعددة من كتاب الله هو ارتباط الترف بالفساد . وهؤلاء المترفون من أشد من يقاوم الحق والتغيير في المجتمع .. ويقول الله تعالى هذا في قاعدة شاملة في القرآن :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)^(٢) .

ولقد ذكر الله الترف في ثمانية مواضع من كتابه الكريم ليس فيها واحد في مجال المدح أو الإقرار وإنما ترتبط بالظلم والفسق في الدنيا والعذاب في الآخرة^(٣) .

٢٥ - إن معظم من يقبل على الحق هم الشباب والفقراء . على حين يحاول المترفون أن يربطوا بين الحق والغنى المادى ..

(١) ويصف الله أصحاب موسى بقوله : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ)^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام : ١ : ٢٥٤ ، والهاء الواردة في أواخر الأفعال في هذه العبارة للسكت .

(٢) سورة سبأ : ٣٤ .

(٣) راجع مادة « ترف » في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) سورة يونس : ٨٣ .

(ب) وقال عن قوم نوح : (قَالُوا أَنْتُمْ مِّنْ لَّكَ وَاتَّبَعَكَ
الْأَرْضَ ذَلُونَ) (١) ..

وقال عنهم في سورة هود (آية ٢٧) : (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ
إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا
مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) .

(ج) وعن مشركي مكة : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (٢) . وليس معنى هذا أن

الفقراء هم « وحدهم » أتباع الرسل . فالإسلام يفرق بين الغنى والترف .
وإذا كنا في مجتمعنا نعمل من أجل « الكفاية » فنحن نحارب « الترف »
في الوقت نفسه .

وهكذا يمكن أن نخرج في بساطة بقوانين اجتماعية تسير عليها
المجتمعات إلى جانب القوانين الطبيعية التي رأيناها من قبل في الكون .

٢٦ - وهذه القوانين التي نستطيع أن نخرج بها من دراسة قصص
القرآن يمكن أن نضمها إلى توجيه القرآن لنا بالسير في الأرض (فقرة ١٦)
ودراسة تاريخ الأمم وأحوالها لنرى عواقبها .. وإلى دعوته لنا بدراسة
ما نحن فيه ، ويستطيع الباحث بهذا أن يكشف المزيد من قوانين الطبيعة
والمجتمع . وما يصل إليه الباحث لا يخرج عن كونه « نتائج » يمكن أن يطرأ

عليها تعديل مع تطور أحداث الحياة ... والنموذج القريب في الفكر الإسلامي لمحاولة كبيرة في هذا المجال هو ما قام به العلامة ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) وسجله في مقدمته المعروفة .. ويذهب ابن خلدون^(١) إلى أن تكون التجربة أساس علمنا بالعالم ، وليس المقصود هو التجربة الفردية ، ولكن تحارب الإنسانية كلها مجموعة بعضها إلى بعض . وقد وضع ابن خلدون فلسفة التاريخ على أساس من تتبع الحوادث إلى عالمها وكشف قوانينها ، وعنده أن معرفة الحاضر معرفة صحيحة هي وسيلتنا المأمونة إلى معرفة الماضي وإلى معرفة المستقبل .. والتاريخ يبين أعمال الناس وطرائق معاشهم ومنازعاتهم وحكوماتهم وصناعاتهم وعلومهم ، ثم يبين كيف تزدهر المدنية قليلا قليلا بادئة من مبادئ بسيطة ، ثم تأخذ في الزوال ، وتتقلب الجماعة في صور مختلفة هي : حالة البداوة ، ثم القبيلة ، ثم الدولة في مدينة .. وأن أسباب تدهور المجتمع ما قد تسببه الحضارة من رغد وانغماس في الشهوات ومن فقدان الناس لبأسهم الحربي والتمسك بدينهم . وعندئذ تظهر قبيلة قوية تأتي من الصحراء أو شعب غير مترف يتمتع بعصبية قوية ويقضي على المجتمع المترف لينشئ دولة جديدة . فشأن الدول والجماعات الكبرى هو هكذا : الجيل الأول يبني ويؤسس ، والثاني يحافظ على ما بناه الأول ، والآخر يهدم ، وتلك حال المدنيات كلها ، إذ أن للمدنية والعمران البشري قوانين ثابتة .

هذه خلاصة موجزة لقضية القوانين الاجتماعية عند ابن خلدون ، ولا نود أن نقف طويلا عند دراستها - في هذا البحث فمنها ما أثبتته العلم ومنها ما نفاه ومنها ما طوره - وإنما الذي يعيننا منها الآن هو أنها

(١) تراجع مقدمة ابن خلدون . وطبعاتها متعددة . ودراسة لمنهج كتبها « على عبد الواحد وافي » صدرت في سلسلة أعلام العرب بعنوان « عبد الرحمن ابن خلدون » - أبريل ١٩٦٢ .

كانت دراسة رائدة لمحاولة كشف القوانين العلمية التي يتطور بها المجتمع ، وجاءت من بعدها محاولات أخرى كثيرة شأن الحياة في تدفقها .

والخلاصة

- ١ - أن الإسلام ينظر إلى الوجود كله نظرة تكاملية .
- ٢ - وأن العلم في المفهوم الإسلامي شامل يضم ما جاء به الوحي وما يصل إليه الإنسان بجهده على المستويات العقلية والتدريسية .
- ٣ - وأن الدعوة إلى البحث العلمي دعوة أصيلة في الفكر الإسلامي .
- ٤ - وأن القرآن الكريم يلفتنا إلى التأمل في الكون والنفس والتاريخ الإنساني ويذكر لنا نماذج من ظاهرات الكون والمجتمع نستطيع أن نستهدف بها محاولة كشف القوانين العلمية التي يسير بها الكون ويتطور بها المجتمع على أساس من الدراسة العلمية القائمة على الملاحظة والتجربة .
- ٥ - وأن الفكر الإسلامي سبق له محاولات رائدة في هذا المجال أبرزها محاولة ابن خلدون في مقدمته أن يكشف قوانين تطور المجتمع .

الفصل الرابع

الإسلام والإدارة

محاضرة أقيمت في الموسم الثقافي لمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية - جامعة القاهرة ، في أول ذي الحجة ١٣٩١ هـ الموافق ١٧ من يناير سنة ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم
رسل الله ، وعلى إخوانه من الأنبياء المرسلين ، ومن سار على هديهم إلى
يوم الدين .

إخوتى : السادة المدير ، والأمين ، والعميد ، وزملائي ، وأبنائي :
هذه مناسبة كريمة ألقاكم فيها ، لتتحدث معاً عن موضوع الإسلام
والإدارة على أساس من عرض بعض النماذج الإدارية وتحليلها . وأذكر
في مستهل هذا الحديث كلمة للإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه
حينما ذكر عنه بعض أصحابه جانباً من الخير والمديح ، كما فعل معي
أخى الأستاذ الدكتور عميد المعهد ، فكان من قوله اللهم اغفر لي ما لا يعلمون
واجعلني خيراً مما يظنون .

أما فيما يتعلق بالتعاون مع هذا المعهد الكريم ، فإننى أعدّه حجرة
من بيتنا الكبير : جامعة القاهرة ، التى نشأنا فى رحابها ، وعشنا فيها
طلاباً وعاملين فى هيئة التدريس . ولم تنقطع صلتنا بها ، إذا كنا فيها
لم ننتقطع عن المجتمع الكبير ، وإذا كنا فى المجتمع الكبير ظل الحنين
إليها حياً بين جوانحنا .

١ - شمول الإسلام :

وأما عن موضوع الإدارة ، من حيث علاقته بالإسلام ، فأود أن
نبدأ أولاً بعرض لمفهوم الإسلام فى شموله ، ونحن حينما نتحدث عن
الإسلام فى شموله ، إنما نؤمن به ديناً آمناً بكل نبي ورسول ، وعدّ الإيمان
بالأنبياء من لدن آدم عليه السلام ، حتى عيسى عليه السلام ، جزءاً

من الإسلام . وفي هذا تقرأ قول الله عز وجل : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ كُتُبُهُ
وَكُتُبُهُ وَرُسُلِهِ ، لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)^(١) .

والنبي عليه الصلاة والسلام ، أكد هذا المعنى في حياته بأكثر من
طريقة ، يقول على سبيل المثال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كرجل بنى
بيته فجمّله وحسنه ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فكان الناس
يطوفون بالبيت ، ويعجبون ، ويقولون : ما أجمله ! ما أحسنه ! هلا
وضعت هذه اللبنة ؟ ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »^(٢) .

ويقول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(٣) . وأنت لا تتمم إلا على
أساس شيء قائم بين يديك . وما كان يتحدث عن نبي إلا بقوله : أخى .
والله تبارك وتعالى يدعو إلى أن يهتدى بهديهم ويسير على طريقةهم :

(وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ
فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)^(٤) .

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه عن أبى هريرة في كتاب المناقب ، باب
خاتم النبيين ٥ : ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٣) رواه مالك في الموطأ وأحمد عن أبى هريرة . انظر مشكاة المصابيح
للتهريزى ٢ : ٦٣٢ رقم ٥٠٩٦ ، ٥٠٩٧ . ط . المكتب الإسلامى بدمشق
بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى . ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

(٤) سورة هود : ١٢٠ .

فهذه مدرسة ربانية ، النماذج التي فيها هي سير الأنبياء والمرسلين بدون تفرقة بين نبي ونبي أو رسول ورسول. هذا هو تصوّر الإسلام في شموله التاريخي أو الموضوعي .

وأنت إذا نظرت ، حتى من الناحية الخسائية البحتة ، إلى تقسيم آيات القرآن الكريم من حيث علاقتها بالموضوعات ، تجد أن ما لا يقل عن سبعة أثمان القرآن الكريم يختص بقصص الأنبياء السابقين ، والثلث الباقي يختص بالمجتمع النبوي وأحكامه . معنى ذلك أن التاريخ البشري - في منظور القرآن الكريم ، وبالتالي في المنظور الإسلامي - وحدة إنسانية شاملة رائعة . وضع الله تبارك وتعالى لنا هذا الشمول في ليلة الإسراء والمعراج حينما جمع الأنبياء في صلاة واحدة مع النبي عليه الصلاة والسلام ، على تتابع وتباعد الديار . لماذا ؟ لكي نتعلم - نحن الناس - ذلك الإنحاء الإنساني الرحب الكبير الذي أوضحه القرآن الكريم في

قول الله تعالى : (إِنَّمَا إِلَهُ الْوَثِنُونَ إِخْوَةٌ) (١) وقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديثه الصحيح ، الذي كان يدعو به ربه في أعقاب صلاته : « اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (٢) .

هذا المعنى لم يكن مقتصرًا على النبي عليه الصلاة والسلام وإنما نجده حتى في أخبار الخلفاء الراشدين . يقول علي بن أبي طالب للأشتر النخعي حينما ولاه مصر متحدثًا عن الرعية : « وأشعر قلبك الرحمة بهم ، والمحبة لهم واللفظ بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتم أكلهم ، فإنهم

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

(٢) من حديث رواه أبو داود عن زيد بن أرقم . انظر في جامع الأصول لابن الأثير الجزري ٥ : ٥٢ رقم ٢٢٠٢ ط . السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م .

صنفان : إما أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق ، يفرض منهم الزلل وتعرض لهم العلل ^(١) ، ثم يجعل لهم جميعاً الحق في المال فيقول : « والناس عيال على الخراج وأهله . وفي الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه » ^(٢) . والوالى هنا مسئول مسئولية شاملة ، عن كل المجتمع الذى يعيش فيه . ومن هذا المنطق والشمول الكبير ، والأخوة الإنسانية يمكن أن ننظر إلى الإسلام .

٢ - الحركة في الإسلام

وننتقل بعد هذا إلى عنصر ثان ، وهو ما يمكن أن نسميه بعنصر الحركة في الإسلام ^(٣) . وأنت حينما تقرأ القرآن الكريم . تجد أنه يدعوك إلى أن تتأمل في هذا الكون ، وإنه ليعدّ هذا الكون كله مسلماً لله تبارك وتعالى . وحينما خاطب الله السموات والأرض لتأتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ^(٤) ويعدّ هذا الكون كله في سجود لله ، وفي تسبيح لله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ

(١) نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٩٣ : ٩٤ - شرح الشيخ محمد عبده ط التجارية بمصر .

(٢) نهج البلاغة : ٣ : ١٠١ .

(٣) محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى في الإسلام . الترجمة العربية لعباس محمود ص ٤٣ - ٧٤ عند دراسته البرهان الفلسفى على ظهور التجربة الدينية ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٥ . وانظر أيضاً في دراسة مبدأ الحركة في الإسلام : حسن صعب : تحديث العقل العربى . الفصل الثالث عن التحديث القيمى ص ٨٣ - ١١٥ . دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٩ .

(٤) سورة فصلت : ١١ .

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (١)، ويعدّ الكون كله في حركة مستمرة . انظر
إلى ما خلق الله في السموات والأرض ، وكيف يوجهك الله إليه :
(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ،
وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ .
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ
النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (٢) .

ولقد درسنا الذرة ، وعرفنا أنها قائمة على الحركة ، بل عرفنا أنها
كون صغير ، لا يفترق من ناحية الأسس العلمية التي يتحرك فيها عن
هذا الكون الكبير . فكأن الكون ذرة واحدة كبيرة ، وكأن الذرة كون
صغير ، وأنت تعرف أن المسافات فيما بين مكونات هذه الذرة ، منسوبة
إلى حجمها ، لا تختلف عن المسافات بين أجزاء هذا الكون منسوبة
إلى حجمها . هذه الحركة الكونية تنقلنا إلى حركة الحياة والتاريخ :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (٣) . وأنت مأمور
بالحركة : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (٤) ، وقد تكور الأمر
بالسير في الأعرض ، في أكثر من آية قرآنية : (هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

(١) سورة الإسراء : ٤٤ . (٢) سورة يس : ٣٨ - ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران : ١٤٠ . (٤) سورة الأنعام : ١١ .

وَالْيَهُ النَّشُورُ^(١) ، والمجتمعات في حركة : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)^(٢) .

حتى الماء إذا سكن ، أسن ، وأصبح مستنقعا ، وإذا تحرك ولدت
منه الكهرباء .

هناك حركة في التاريخ ، وحركة في النفس ، وحركة في الكون .
ومن منطلق الحركة لا يمكن أبداً أن نقيم الحياة على جمود . وعلى سكون ،
وعلى ما يمكن أن نسميه الروتين . إنه ينبغي أن يتحرك ، والإدارة تتحرك ،
والجامعة تتحرك ، وكل شيء يتحرك . وليس من منطق العقل أن هذه
الشمس الجبارة لا تقضي يومين في مكان واحد من يوم أن خلقها الله :
(وَكَُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، وهذا ما أثبتته العلم الحديث . ثم بعد

هذا نأتى إلى قوانين من القرن التاسع عشر والثامن عشر ، واللائح القديمة
والنص يقول كذا ، والقانون يقول كذا ، ثم نتحجر على ذلك ،
وحيثما نقول : نتحجر ، فإننا نظلم الحجر لأن ذراته متحركة . في هذا
الضوء يمكن أن ندرك جانباً من العمق العميق في قول الله تبارك وتعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ)^(٣) .

التسبيح حركة ، فهذه الحركة من كائن إنما هي تسبيح ، تسبيح
معهد الدراسات والبحوث الإحصائية أن ينتج وأن يعمل ، وتسبيح

(٢) سورة البقرة : ٢٥١ .

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الإسراء : ٤٤ .

الجامعة أن تتطور ، وتسبيح القوات المسلحة أن تستعد بالعلم والسلاح والإيمان والتنظيم ، وأن تكون وسيلتنا لاسترداد حق وصيانة مجتمع .
ومن هنا فليطالب كل إنسان منا نفسه بتسبيح الله ، بل ينبغي عليه أولاً أن يعرف نوع التسبيح المطلوب منه ، هذا هو العنصر الثاني وهو عنصر الحركة .

وهناك ملاحظة يمكن أن نربطها بهذا العنصر ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقسم في القرآن بشيء وهو في حالة سكون قط :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) . لأنها تتحرك ، (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ، (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) ، و (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، حتى القلم حينما أقسم الله به ، أقسم به في حركته فقال : (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) .

وأما في بحثنا هذا ثلاثة مجالات متحركة :

العلم . الدين . المجتمع

ونحن محتاجون إلى إيجاد تناسق بين هذه المجالات جميعاً .

ولنسائل أنفسنا : هل معنى الحركة تغيير كل شيء ؟

انظر إلى نفسك : إن الله سبحانه وتعالى خلقك وأوجدك . تبدأ رحلة الحياة من نقطة لا تكاد ترى بالعين ، حتى تستوى بشراً سوياً . وأنت في سن العشرين ، تحمل الاسم نفسه الذي تحمله في سن الأربعين ، وتحمله طول حياتك ، وذكراك - ولكل منا بعد الحياة ذكرى - تحمل الاسم نفسه . اسمك من عناصر الثبات والتعريف بك ، وليس معنى التغيير والتبديل - ولنضرب لذلك مثالا - أن نجتهد ونجعل لكل طالب

اسماً كل سنة ! ! ولو فعلنا ، فما الفائدة ؟ ومع ثبات اسمك في المعهد تزداد معلوماتك كل سنة بل كل محاضرة أيام الدراسة .
فيك إذن نمو مستمر ، والنمو تغير . وفيك عناصر ثبات . فأنت في أية لحظة تجمع بين الثبات والتغير . والذي يتغير ينبغي أن تكون فيه بعض صفات الثبات ، على الأقل لكي نستطيع أن نقيس التغير . وإلا فكيف أقيس طول شيء وطول المسطرة نفسها متغير ؟ كيف أستطيع أن أزن والوزن عندي متخالفة ؟ كيف أطمئن إلى جهاز حاسب ، وأساس حسابه متغير ؟ إذن : مع التغير ينبغي أن تكون هناك عناصر ثبات .

٣ - التغير والأصالة :

أذكر في لقائنا الماضي في شهر رمضان عرضت للعقيدة ^(١) . ونحن في منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى . وأقولها واضحة ، يستوى في هذا الإسلام مع المسيحية مع اليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم « بإله واحد » . هذه منطقة توحيد ، الصور تختلف ، تفسيرها الفلسفي يختلف . حتى في مصر القديمة مع التعدد الظاهري ، كان للآلهة كبير هو أوزير - ومن دونه آلهة أصغر من رجال ونساء وأطفال . ولها تنظيماتها من الثالوث والتاسوع ومحكمة الآلهة التي تضم اثنين وأربعين إلهاً ^(٢) .

(١) عبد العزيز كامل : التخطيط العلمي في القرآن الكريم . من محاضرات الموسم الثقافي ٦٨ - ١٩٦٩ بمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية ص ١ - ٢٠ . ط جامعة القاهرة .

(٢) أرمان : ديانة مصر القديمة ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ص ١٠٢ - ١١٣ وما بعدها . وهذه الأسس لها أكثر من تطبيق في فصول الكتاب . ط . مصطفى الحلبي بمصر (بدون تاريخ) .

رياضياً أساس الإحصاء هو الواحد الصحيح : ما دونه كسور ، وما فوقه تعدد. هو الرقم الوسط . كل كسر نضعه أقل منه ، إذا عكسته أعطاك عدداً مضاعفاً فوقه . الرقم الواحد هو القائم بذاته . هل نقرأ مع هذا قول الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

إن الجزء الذى تؤكد هو الذى يبرز شخصيتك التى تعيش بها . والجزء الذى تغيره هو الذى يحدد هذه الشخصية فى الحياة ، فهناك تأكيد للشخصية وأصالة وهناك تغيير وإثراء .

انتقلنا من الشمول إلى الحركة ، إلى الأصالة والتجديد . ولناخذ الدين على سبيل المثال . ما هى عناصر الاستقرار فيه ؟

أولاً — العقيدة : وفى كل دين تعدد العقيدة أساساً : (إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (١) .

ثانياً — العبادات : ولكل دين شعائره التى تدعو أتباعه إلى القيام بها ، ولها فى الإسلام أثرها فى تحديد ملامح المجتمع ، ولها آثارها الاجتماعية فى الوقت نفسه ، ومرونة التطبيق مع ظروف المجتمع المتغيرة .

ثالثاً — الأخلاقيات : التى تقوم بها الحياة ، ولو نظرت إلى حياتنا اليومية وتجاهلت الأساس الأخلاقى . فلن يستطيع المجتمع أن يتحرك دقيقة واحدة . فعندما أذهب إلى الصيدلية ، وأطلب دواءً فإنما أخذه ولا أحلله بنفسى ، لثقتى فى الصيدلية ، وقد رضيت به قبل هذا بناء على ثقتى فى الطبيب ، ثم بعد ذلك أتناوله . وعندما أفتح الصنوبر لأخذ

كمية من الماء - لتناول الدواء - هل أجرى تحليلاً لكمية الماء هذه ؟
 قبل ركوب السيارة هل أكشف على بصر السائق وعلى قوة السيارة ؟
 وعندما أركب طائرة هل أكشف على الأجهزة ؟ إذن : الحياة تقوم
 أساساً على الثقة أكثر مما تقوم على الشك .

رابعاً - هذه الأخلاقيات يعبر عنها إطار عام من المعاملات لا يمكن
 فصله عن الأساس الأخلاقي . والدين يعطينا هذا الإطار العام . ويترك
 لنا حرية واسعة من التطبيقات . وصفوة القول أن الدين يقوم على إيمان
 بالله وعمل صالح في الدنيا وجزاء وحساب على ذلك في الآخرة . وفيما
 وراء ما حدده الدين ، ترك لك مرونة واسعة جداً في التطبيق في
 كافة مجالات الحياة .

٤ - نموذج تطبيقي

ولنأخذ نموذجاً تطبيقياً من الشورى في الإسلام . وهي أساس عريض
 تقوم عليه حياة أي مجتمع . إن الإسلام يؤكد فيها جانبين :

الأول : أنها جزء من تكوين المجتمع (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)^(١) .

الثاني : على الحاكم أن يستشير أصحاب الرأي والحق : (وَشَاوِرْهُمْ

فِي الْأَمْرِ)^(٢) .

وليفرض أن نكسـة حدثت في المجتمع ، أو هزيمة سياسية ، أو
 عسكرية ، أو اضطراب رأى يحتاج إلى إعادة نظر ، فلا يمكن بالمقاييس
 الإسلامية أن يتخذ ذلك ذريعة لإهدار حق القاعدة أو أصحاب الرأي
 في إبداء آرائهم فيما يعود عليهم بالنفع . وما اصطـلحنا - في مجتمعاتنا

المعاصرة — على تسميته بالحوار في كافة مرافق حياتنا ، إنما هو أساس عريض وأصيل في الحياة الإسلامية .

ولنذكر لذلك مثالا مما حدث بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد (١) . فلقد خالف الرماة عن أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، بعد أن اتفقوا على خطة المعركة . وعدلوا عن الخطة الأولى التي تكتفى بالدفاع عن المدينة دون لقاء العدو خارجها .

وكان من أثر مخالفة الرماة أن انكشف ظهر الجيش واضطربت صفوف المسلمين واستشهد منهم سبعون وجرح سبعون . وبرغم الآلام والجراح لم يستطع كفار قريش أن يقتحموا المدينة أو يقتلوا الرسول القائد (ص) .

التخطيط الدقيق كان من الرسول . والخطأ كان منهم مرتين ، ولكن هذا لم يكن مدعاة إلى إهدار حق القاعدة في إبداء رأيها ، ولا إلى إسقاط مبدأ الشورى من حياة المجتمع . فنحن نتعلم من التجربة والخطأ . وعلينا أن نتابع الحوار بعقل وقلب مفتوحين ونؤصل مبدأ الشورى أو الديمقراطية إذا شئنا اصطلاحاً شائناً .

بعد الهزيمة يوجه الله رسوله إلى أخلاقيات القيادة . القدرة على جمع الصف بالكلمة الطيبة والقلب الكبير ولين الجانب ، برغم الجراح والآلام . فيقول له : (فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...) (٢) . والعفو باللسان ، والاستغفار بالقلب .

(١) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة أحد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

فإذا ما هدأت النفوس انفتح المجال أمام الشورى وإبداء الرأي ، في جوٍّ صحيٍّ لا تختنق فيه الفكرة ، ولا تهتز ثقة الفرد في نفسه ومجتمعه وقيادته ... من أجل ذلك نقرأ بقية الآية : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) .
فإذا جمع الرسول ما عندهم من رأى وتبلور هذا كله في خطة واضحة ، فلتأت مرحلة ثالثة بعد إشاعة جو الثقة والمحبة وبعد جمع الآراء ، وفيها نقرأ قول الله تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

ومادام هذان الأساسان متوافرين : أن تكون الشورى أسلوب حياة بين العاملين ، وأن على القائد جمع الآراء . . فإن ما يوصلك إلى هذين الهدفين متروك لك . .

للمجتمع أن يكون اللجان العلمية المتخصصة في الجامعات ، ويعقد الندوات ، ويناقش القضايا في مجلس الشعب أو في الصحافة .
وأن تكون حركة الفكر في المجتمع صاعدة هابطة : صاعدة من القاعدة إلى القيادة في جميع مجالاتها . هابطة من مستويات القيادة إلى أركان المجتمع ، متممة بذلك دورها الحية بكل ما تحمل من ربط بين القضايا المركزية واللامركزية ، الكلية والجزئية ، الاستقرائية والاستنباطية ، النظرية والعملية .

ويعطينا هذا مثالا واضحا للجمع بين الثبات والتغير في المجتمع : ثبات مبدأ الشورى وتغير أساليبه .

٥ — التنسيق بين حركة العلم والدين والمجتمع

في قضايا الفكر نحن محتاجون إلى التفرقة بين الأصيل والوافد ، الإنساني العالمي ، والمحلي عندنا أو عند غيرنا . والفكر أحيانا قد يعامل

دولياً معاملة السلع التجارية ، وينخضع لعوامل من الترويج أو مؤامرات الصمت . وقد يحدث « إغراق » للأسواق العالمية بأنواع من الفكر تجد من ينفق عليها ويسعى إلى نشرها بحسبانها امتداداً لوجوده .

وقد نستورد دراسات عن أنواع الصراع ليست قائمة في مجتمعاتنا أو على الأقل لم تصل إلى درجة الحدة التي كانت بها في أقطار جاءتنا منها هذه الدراسات . ومن أقرب الأمثلة على ذلك قصة الصراع بين العلم والدين . فنحن في مجتمعاتنا ما زلنا نطلق اسم العالم على رجل الدين .. وسمينا نقابة الأطباء « دار الحكمة » وما زلنا نؤمن بالمعرفة في شمولها . ولم نشاهد عنف هذا النزاع الدموي بين العلم والدين الذي عاشته أوروبا ، ووصلت به الكنيسة إلى مستوى من الإرهاب العلمي أرهقت الشعوب من أمرها عسراً حتى طالبت بتنحية الدين عن واقع الحياة . ومرت هذه المرحلة ، وأخذ الدين الآن — وبخاصة في العالم الثالث — يقابل تحدياً جديداً هو مدى ما يستطيع أن يقدم من عطاء للمجتمع ^(١) .

هذه الذبذبات الحادة في الصراع بين الدين واللم لها في المجتمع الأوربي — بخاصة — رواسب تاريخية لم تتوافر ظروفها الموضوعية عندنا . من أجل ذلك علينا ابتداءً أن ندرك طبيعة الحياة الدينية في ديارنا — بعامة — ومدى تشجيع الإسلام للبحث العلمي — بخاصة — والربط بين ذلك كله وتطوير المجتمع ، وعدة هذا التطوير قربة إلى الله وواجباً على كل قادر .

ونستطيع أن نجمل مصادر المعرفة في الإسلام فيما يلي ^(٢) :

-
- (١) راجع فصلاً إضافياً عن الدين في القرن العشرين في المرجع الآتي :
اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو «تاريخ البشرية» المجلد السادس ،
القرن العشرون ، الجزء الثاني (١) تطور المجتمعات الفصل السادس ص ٢٨٣ —
٣٥٠ ط . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ .
- (٢) محمد إقبال (١٩٥٥) في دراسته روح الثقافة الإسلامية ص ١٤٢ —
١٦٧ . وفيها يناقش في تفصيل وتحليل الوحي والكون والنفس والتاريخ .

أولاً : الوحي ، وهو أسمى المصادر في الإسلام ، وأول أمر إلهي فيه هو قول الله تعالى : « اقرأ » . وأول آية أقسم بها الله في القرآن هي « القلم » فقال : (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) ، فالوحي في الإسلام يدعو أول ما يدعو إلى العلم وسير الحياة .

ثانياً — التاريخ الإنساني ، ويعده الإسلام ذخيرة وتراثاً ينبغي أن يكون بين أيدينا ، نستفيد من دروسه ونعرف سنن الله فيه . أو إذا شئت اصطلاحاً حديثاً « قوانين حركته » .

ثالثاً : النفس الإنسانية ، وكل ما يرتبط بالإنسان في تكامله .

رابعاً : الآفاق أو الكون ، وفيها وفي النفس الإنسانية نقرأ قول الله

تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (١) .

وكان دائرة المعرفة الإنسانية ودائرة العلم تصل بالإنسان إلى أوسع الآفاق والآماد : من أعماق ذاته إلى أبعاد الكون ، ومن جوف الأرض إلى الفضاء الخارجي . وإذا شئنا كلمة تجمع هذا كله وتطبيقاته وممارسته كانت « الحضارة » ، بكل محافظتها على الذات والشخصية ، وانفتاحها على آفاق المعرفة ، وربطها بين الإنسان وربّه ومجتمعه ، وماضيه ومستقبله والعالم من حوله . وفي إطار هذه الحضارة ، وفي تناسق معها ، تعمل أجهزتها الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية . . كحركة الجسم الواحد . .

ولنتقل بعد هذا إلى دراسة جوانب من العلاقة بين الإسلام والإدارة .

٦ - الإدارة وظيفة اجتماعية

وبين يدي وأنا أعدّ هذه الدراسة « كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية »، وهو من تأليف السيد محمد الحسنى الإدريسي الكتانى الفاسى^(١) . وأرجو أن أقف وقفة قصيرة عند كتاب يحتاج منا إلى دراسة مستفيضة . فالمكتبة الإسلامية غنية بتراتها الإدارى^(٢) . كتاب التراتيب الإدارية يحوى شرحاً وإضافات لكتاب « تخريج الدلالات السمعية » للخزاعى^(٣) وهو عن النظم الإدارية الإسلامية . ويرجع الكتانى إلى نحو

(١) عبد الحى الكتانى : كتاب التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية ، في المدينة المنورة العلية . ط . المطبعة الأهلية بالرباط سنة ١٣٤٦ هـ في جزأين .
(٢) تراجع مقدمة التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى وبها قائمة ممتازة للمراجع الإدارية . وراجع أيضاً مقدمة عبد العزيز عبد الحق للترجمة العربية لكتاب الإدارة العربية تأليف : س . ا . ق . . حسنى . ترجمة إبراهيم أحمد . ط الألف كتاب ٨٩ علوم إنسانية ص (هـ - و) .

وقائمة المراجع الملحقه بالكتاب مع إضافات وتعليقات للمراجع ص ٤٤٣ - ٤٦٢ .

(٣) على بن محمد الخزاعى : تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية . وهناك دراسة قيمة عن كتاب الخزاعى في مقدمة كتاب عبد الحى الكتانى (١٣٤٦ هـ) عرض فيها تاريخ حياة المؤلف ومكانته ومشيخته ، ثم درس : كتاب تخريج الدلالات السمعية ومقصد المؤلف من تدوينه وتاريخ اشتغاله بذلك ومنهجه والأصول التي استمد منها ونقل عنها ، وبرناجه فيه بالتفصيل . انظر مقدمة كتاب الكتانى من ص ٢٦ - ٧٤ .

مائة وخمسين مرجعاً إسلامياً ، أضاف منها إضافات أساسية إلى كتاب الخزاعي ، وأعطانا في تسعمائة وخمسين صحيفة من القطع المتوسط صورة كاملة عن الحياة الإدارية في مجتمع المدينة ونظم الحياة فيها حتى أصبح من أهم وثائقنا في هذا الموضوع . وأرجو أن تتاح فرصة عرض ومناقشة هذا الكتاب في لقاء مقبل إن شاء الله . . والذي أود تسجيله الآن أن الإدارة قديمة وأصيلة في الإسلام .

وفي الاصطلاح الحديث نعرف أن الإدارة لها جانبان :

- الجانب المادى أو الآلى ، وهذا متعلق بالأنظمة والأجهزة .
- الجانب الأخلاقى .

وعملياً لا نستطيع أن نقيم مجتمعنا إلا إذا كان التطوير الإدارى فيه مادياً وآلياً على أحدث الوسائل ، وأخلاقياً على أرفع المستويات التى نريدها .

والإسلام يعدّ الإدارة والقيادة وظيفة عامة . ولنضرب لذلك مثالا من حياة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

عندما ولى الخلافة قال : « أيها الناس ، قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . » (١) ، من كلمته هذه يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

- ١ — أن الإدارة والقيادة وظيفة وخدمة .
 - ٢ — أنها من حق الأمة وهى التى تختار .
 - ٣ — أن عمل الحاكم أو المسئول الإدارى خاضع للرقابة الشعبية .
- ويصل أبو بكر إلى أبعد من هذا عندما يخاطبهم قائلاً : لقد كنت أعمل لعيالى . وأنا الآن أعمل لكم ، فاجعلوا لى من بيت مالكم شيئاً . .

(١) أبوجعفر أحمد المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

ففرضوا له كل عام مائتين وخمسين ديناراً، وكل يوم شطر شاة ، وما كسوه في الرأس والبطن . . ولا وجد أن هذا لا يكفي عياله ، أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثواب يتجر بها . فلقبه عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالوا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟

لقد أنفق أبو بكر أمواله في خدمة الإسلام . ولم يرض أن ينفرد بتحديد نفقته الخاصة من بيت مال المسلمين وهو خليفة رسول الله . وإنما آمن أن هذا حق الأمة . فلما عجز القدر الضئيل الذي حددوه له عن أن يفي بحاجته قال لهما : لا حاجة لي في إمارتكم . رزقتموني ما لا يكفيني ولا عيالي !!

ولما عرضا عليه الزيادة كان رده : أنما رجلان من المهاجرين لا أدرى أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا .

وذهبوا جميعاً إلى المسجد . وارتقى أبو بكر المنبر وهرض الأمر كله على المهاجرين ووافقوا عليه . فقال أعرابي من جانب المسجد : — لا والله ما رضينا . فأين حق أهل البادية ؟

فقال أبو بكر : إذا رضى المهاجرون شيئاً ، فإنما أنتم تبع (١) . وفي هذا يقرر أبو بكر عدة مبادئ أخرى :

- ١ — أن عرض أى موضوع على الاستفتاء له حدود وأبعاد . .
- ٢ — أن رأى المرحح هو لأهل الاختصاص وأدرى الناس بالموضوع المعروض .

وسنرى في نموذج مقبل كيف كانت دائرة الشورى أوسع . وأن هذا يرجع إلى طبيعة الموضوع المعروض .

٧ - العلاقة بين الوظائف القيادية

ويمكن من حياة أبي بكر في خلافته وعلاقته بعمر بن الخطاب أن نعرض النموذج الآتي :

جاء رجلان من المؤلفة قلوبهم - وهم من سراة القوم الذين كان يتألف الرسول عليه الصلاة والسلام قلوبهم بشيء من الإكرام ليكفوا عن الإسلام أذى ، أو يجلبوا له نفعاً : والرجلان هما الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري ، وقالوا لأبي بكر :

— يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعنا لعلنا نحرقها أو نزرعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمن حوله : ما تقولون فيما قالوا ، إن كانت أرضاً سبخة لا ينفع بها ؟ قالوا : نرى أن تقطعهما إياها لعل الله ينفع بها بعد اليوم . فأقطعهما إياها وكتب لهما كتاباً بذلك . قال : وأشهدا عمر ، وليس في القوم . فانطلقا إلى عمر فوجداه قائماً يهنأ (يطلّي) بعيداً له . فقالا : إن أبا بكر قال : أشهد بما في هذا الكتاب ، فنقرأ عليك أو تقرأ ؟ فقال : أنا على الحال التي ترياني فإن شئنا فاقراً وإن شئنا فانتظرا حتى أفرغ عليكما . قالوا : بل نقرأ . فقرأ . فلما سمع ما في الكتاب تناوله من أيديهما ومحا ما فيه . فتدمرا وقالوا مقالة شينة . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل (أى ضعيف) ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا واجهدا جهداً لا رعى الله عليكما إن رعيتهما . قال فأقبلا إلى أبي بكر يتدمران فقالا : والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : لا ، بل هو لو كان شاء . قال فجاء عمر . وهو مغضب على أبي بكر فقال : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعها هذين . أرض هي لك أم للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة . فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال :

استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا على بذلك . قال : فإذا-استشرت هؤلاء الذين حولك فكل المسلمين أوسعهم مشورة ورضاً ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا منى ولكن غلبتنى (١) .

ومن هذا النموذج يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

١- أن دائرة الشورى وأخذ رأى تضيق وتتسع بحسب طبيعة الموضوع المعروض . وأنها - فى بعض الموضوعات الحيوية - تصل إلى مستوى الاستفتاء العام .

٢- أن التصرف فى أية قضية مطروحة مرتبط بالظروف المتغيرة التى تصاحب هذا التصرف . بمعنى أننا لانستطيع أن نفصل التصرف - إدارياً أو غير إدارى - عن ملابساته المكانية والزمانية والموضوعية المتغيرة .

٣- أن المصلحة العامة لا تخضع خضوعاً أعمى لشكليات الإدارة من عدد الأصوات والأغلبية . وإنما - فى مثل هذه القضية المطروحة - يمكن إعادة النظر فى القرار الإدارى إذا ما كانت الإعادة من أجل مصلحة عامة . ومع أن أبا بكر علق إنفاذ القرار على موافقة عمر ، فإن شكليات الإدارة - فى بعض المفاهيم الحديثة - قد تقضى بصحة القرار فى غياب عمر بن الخطاب على أساس من قرار الأغلبية وحده .

٤- أن العلاقات الإنسانية بين مستويات القيادة العليا كانت على درجة من المتانة والأصالة ، لا تستطيع معها أقوال السوء ونزعات الشر والتفرقة ، أن تعظم الجسور بين القائد المسئول ومن حوله من كبار المستشارين .

٥- أن رد أبى بكر على المؤلفة قلوبهم كان فى جانب عمر بن الخطاب حتى قبل أن يسمع منه وجهة نظره . ولكن هذا لم يحل دون

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٣٢-٣٣ تصحيح حسن الهادى حسين ط . صبيح القاهرة (بدون تاريخ) .

طرح-القضية للبحث الحر من جديد أمام المسلمين جميعاً ، والانتهاه إلى الأخذ برأى عمر بن الخطاب ، وسرى بعد هذا مدى الإجلال العميق الذى كان يكنه عمر فى قلبه للخليفة الأول ، وأن الخلاف فى وجهات النظر والحوار ، إنما كان يستهدف المصلحة العامة وحدها .

٨ - بين القيادة والقاعدة

ولننظر إلى علاقة المسئول الأول بالقاعدة وإنسانياتها :
قبل الخلافة كان أبو بكر يغدو فى الصباح من بيته إلى السوق ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه . وربما خرج هو نفسه فيها . وربما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم .
فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال : بل لعمري لأحلبها لكم . وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه ، عن خلق كنت عليه .
فكان يحلب لهم . فربما قال للجارية من الحى : يا جارية . أتخبين أن أرغى لك أو أصرح (أى لا يكون للحليب رغو) فربما قالت : ارغ . وربما قالت : صرح . فأى ذلك قالت فعل^(١) .

وما نخرج به من هذا النموذج :

١ - الأصالة الأخلاقية التى كان عليها المسئول الإدارى الأول .

٢ - أن علاقاته الإنسانية - حتى بجوارى الحى والعاملين فيه - لم يطرأ عليها أى تغيير . وإنما كانت الخلافة عنده « خدمة عامة » تتسع فيها دائرة المسئولية لتكون على مستوى المجتمع كله ، وتكون مدعاة

(١) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٦ ط . بيروت ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ .

إلى قوة الروابط لا انقطاعها أو انعزال المسئول عن قاعدته التي يعمل من أجلها .

٩ - التخطيط الشامل والتنفيذ

وإذا كنا نعدّ من أهم سمات القائد الإداري الناجح القدرة على التصور الشامل والقدرة على التنفيذ والإبداع . . فإن هاتين السمتين تنبعان من أصل واحد ، هو النظرة الشاملة التي تستطيع أن ترى مستقبل المجتمع وتسعى على بصيرة نحو هذا المستقبل .

وأشد صعوبة من هذين أن يحتفظ بهما المسئول الإداري مع المستوى الأخلاقي الكريم الذي يرمى الحقوق الإنسانية في الاتصالات اليومية في الوقت نفسه . وكان أبو بكر يجمع بين هذه القدرات .

كانت عنده اللمسات الإنسانية التي رأيناها في عطفه على جوارى الحى ، وحرصه على علاقاته الإنسانية مع زملائه ، كما رأينا في قصته مع عمر . . ولكن يبقى أروع نموذج لقدرة أبي بكر على التصور والتنفيذ - ما كان من أمره في حروب الردة^(١) .

ولنبداً أولاً بتقدير الموقف معتمدين في هذا على أقوال كبار الصحابة :

١ - تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجم النفاق ، وارتدت العرب ، وشرأبت اليهودية

(١) خورشيد أحمد فارق : تاريخ الردة . ص ١ من منشورات معهد الدراسات الإسلامية في دلهي الجديدة : الهند ١٩٧٠ . والكتاب مقتبس ومهذب من كتاب الاكتفاء بما تضمنته من مغازي المصطفى ومغازي الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي البلمنى أحد علماء القرنين السادس والسابع الهجريين في الأندلس .

والنصرانية ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبي بكر . فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالحبال الراسيات لهاضها . . . » (١) .

٢ - ويجادل عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ، أبا بكر ، ويقدرّون الموقف قائلين عن العرب « فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلا وآخر أخرى » .

٣ - ويقدم على أبي بكر عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس - من أشرف العرب - يساومونه على بعض المال ليكفوه من وراءهم من العرب ! ! ويعرض أبو بكر هذا الرأي فيقبله بعض من عنده قائلين : إنا اليوم قليل في كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

ولا ينفرد أبو بكر في هذا الموقف التاريخي بقرار ، ولا يحمل من معه على تنفيذ أمر لا يؤمنون بمجدواه ، وإنما يتابع معهم الحوار والمشورة : - إنكم علمتم أنه كان من عهد رسول الله (ص) إليكم المشورة فيما لم يمض به أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم . وإن الله لن يجمعكم على ضلالة . وإني أشير عليكم . فإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشير به عليكم ، وفيما أشرتكم به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم . وأما أنا فأرى أن ننبد إلى عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وألا نرشو على الإسلام أحداً . وأن نتأسى برسول الله (ص) فنجاهد عدوه كما جاهدهم . والله لو منعوني عقالا لرأيت أن أجاهدكم عليه حتى آخذه . فاثمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيي . وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم ، فهذا أمر لم يرغب عن عيينة : هو راضه ثم جاله (أى فكر فيه ودبره) ، ولو رأوا ذباب السيف لعادوا إلى ما خرجوا منه أو أفناهم السيف . فإلى النار قتلاهم على حق منعه وكفر » .

واستبان وجه الحق أمام الناس ، وقالوا لأبي بكر : أنت أفضلنا رأياً ، ورأينا لرأيك تبع (١) .

وأرى أن أقف عند هذا الاقتباس الذى أورده سليمان الكلاعى البلسى فى تاريخ الردة — لرى القواعد التى أقرها أبو بكر فى هذا الموقف ، والمنهج الذى اتبعه فى الحوار والمشورة . . مرحلة الدراسة قبل اتخاذ القرار النهائى :

- ١ — لقد أعطى الفرص الواسعة لمن حوله لكى يقولوا رأيهم .
- ٢ — بل إنه استمع إلى أقوام من أشرف العرب ليس رأيهم عنده غير متهم .
- ٣ — وهو يعرض هذه الآراء « الانتهازية » على أصحابه عرضاً موضوعياً .

وبذلك ألقى الأضواء القوية على الموقف من جميع نواحيه قبل أن يتخذ قراره .

- ٤ — وهو عند عرض وجهة نظره يؤكد أن الأمر فى هذا الموقف شورى ، ويحدد موقفه فى أثناء الحوار : « إنما أنا رجل منكم » ، ويؤكد فى نفوسهم معنى الثقة فيما يتجهون إليه من قرار : « إن الله لن يجمعكم على ضلالة » ، وإن الآراء بعضها أرشد من بعض ، ولكل وجهة نظر مسوغاتها . وهو يدعوهم إلى أن « يجمعوا على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم » .
- ٥ — وهو حينما يبدى رأيه يحدد مواقف الانتهازيين وأسلوب معاملتهم ، وحتمية الموقف الصلب الذى يستطيعون به الخروج من هذه الفتنة باتباع دقيق لما أمر به الله من أخذ الزكاة وتوزيعها على المستحقين بدون تهاون ، وقتال من كفر أو ارتد .

كانت حرباً خاضتها « الدولة والمجتمع » من أجل حق الفقير فى

مال الغنى ، ومن أجل وحدة الكيان الإسلامى . ولنذكر أن أبا بكر كان وقتئذ فى الواحدة والستين من عمره . وأنه أنفذ فى حروب الردة أحد عشر جيشاً انطلقت من قاعدة الإسلام فى المدينة . والذي يعنينا منها إدارياً "هذه الحقائق :

١ - أنها كانت مقسمة تقسيماً علمياً دقيقاً بحيث تغطى الجزيرة العربية على النحو الآتى :

- (أ) ثلاثة جيوش فى جبهة نجد .
 - (ب) ثلاثة جيوش فى جبهة الخليج العربى .
 - (ج) جيشان فى الجبهة الشمالية .
 - (د) جيشان فى الجبهة الجنوبية فى اليمن .
 - (هـ) جيش واحد فى الجبهة الجنوبية الشرقية فى ديار بنى سليم .
- هذا مع تعاون بين هذه الجيوش ، ونقل للقوات من جبهة إلى جبهة حسب ضغوط العدو واحتياجات المعركة .

٢ - أن قادة الجيوش جميعاً كانوا من المهاجرين ، وبقي هو فى المدينة بعد أن حارب بنفسه معركتين فى ليلة واحدة : اضطر إلى التراجع فى الأولى ، ولكنه عاد مرة أخرى فى الليلة نفسها لينتصر انتصاره الحاسم فى معركة ذى القصة . وآثر الصحابة بعد هذا أن يبقوا فى مركز القيادة فى المدينة . وبقي معه نفر من الأنصار لحماية القاعدة ، وهى مدينتهم فى الوقت نفسه . ولا شك أنهم أخبر بها ، وأقدر على الدفاع عنها^(١) .

٣ - ولكى نتصور ضخامة هذا العمل ، يكفى أن نذكر أن الجيش الثانى بقيادة عكرمه بدأ عمله فى اليمامة ، وتابع مسيرته إلى الخليج العربى ، ومنها إلى اليمن ، ثم عاد إلى المدينة . هذه المسيرة - طولاً - مثل المسافة

(١) محمود الدرة : تاريخ العرب العسكرى فى مجلد واحد . الجزء الثانى عن حروب الردة ص ٢٤٧ - ٢٨٨ والخريطة المرفقة أمام ص ٤٠٢ . وخريطة حسيني فى كتاب الإدارة العربية أمام ص ٤٣٨ .

بين المدينة وتونس مروراً بمصر وليبيا . أما عن عنف بعض المعارك وضراوتها فقد كانت غير مسبقة في المغازي الإسلامية . وكانت اختباراً قاسياً لمدى صمود قاعدة الإسلام في المدينة ، وقدرتها على إعادة ربط الدولة الإسلامية التي تمزقت وحدتها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا أضفنا إلى ذلك الدعم الذي كانت تلقاه القبائل العربية المرتدة من الدول الكبرى المجاورة لها في فارس والروم استطعنا أن نتصور الجهد الكبير المنظم الذي استطاع به أبو بكر ومن حوله من كبار الصحابة والمؤمنين أن يقدوا سفينة الإسلام ، في موج كالجبال ، حتى تنهى إلى المرفأ الآمن .

وإذا كانت « الشؤون الإدارية » ودقتها أساساً في نجاح أية معركة حربية فإن النموذج الذي بين أيدينا يتكامل مع نماذج سابقة ، لترينا دقة التنظيم الإداري في الحرب والسلام معاً .

١٠ - المجتمع العصري

ونحن نقرأ في القرآن الكريم قسم الله تعالى بالعصر . . بالزمن في مسيرته وتدفقه كما يقسم بالفجر والليل والنجم . . وقد عرضنا علاقة هذا بمبدأ « الحركة » في الإسلام ، وأن الإسلام يدعو كلاً منا على مستوى الفرد والمجتمع والدولة . . أن يعيش عصره وأن يحيط بمنجزاته ، حتى يستطيع أن يساهم في الإضافة إليها .

ونرى في حياتنا أن التنظيم الإداري في تكامل جوانبه المادية وأخلاقياته ، وقدرته على اكتساب الخبرة وتطبيقها ، وتطوير ذاته ، نرى في هذا كله مؤشرات توضح مستوى العمل الإداري .

ولندكر نماذج لانفتاح المجتمع النبوي على العالم من حوله ، واستفادته من خبراته :

١ - ومن أبرز هذه النماذج مدى عناية المجتمع بتعلم اللغات الأجنبية ،

وقد عقد محمد الحسيني الكتاني باباً بعنوان : « الترجمان الذي كان يترجم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) » ، ثم قسم هذا الباب على أساس اللغات المعروفة في المجتمع النبوي . وأعطى نموذجاً من زيد بن ثابت الأنصاري النجاري وكيف كان ترجمان الرسول (ص) بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسنة .

٢ - ثم ذكر بعد هذا كيف أمره الرسول (ص) بتعلم السريانية والعبرية ، عندما دعت الحاجة إلى ذلك في مجتمع المدينة .

٣ - ويستدل الكتاني على مكانة تعلم اللغات الأجنبية في المجتمع بأن الإمام البخاري أدخل الترجمة في باب الجهاد في صحيحه ، لأن ذلك مما يحتاج إليه المسلمون مع رسل العجم وأمرأهم .

٤ - ولم تقتصر الخبرات العلمية على تعلم اللغات ، وإنما امتدت إلى البعثات العلمية يقوم بها أبناء المجتمع لاكتساب جديد يحتاجون إليه . وقد درس الكتاني الآلات الحربية وبخاصة آلات الحصار . ونقل عن ابن سعد في طبقاته لدى الكلام عن وفد ثقيف : ولم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن مسلمة حصار الطائف . كانا يجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . فقدموا وقد انصرف رسول الله عن الطائف منصبا المنجنيق والعرادات والدبابات ^(٢) .

المجتمع إذن لم يكن مغلقاً ولا منطوياً . . ولكنه كان مجتمعاً مفتوحاً على العالم من حوله يستفيد من كل خبراته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

٥ - ويصل تمجيد الخبرة التي يحتاج إليها المجتمع عند فقهاءنا إلى درجة يعدونها فيه من فروض الكفاية ، التي إذا قام بها بعض القادرين عليها سقطت عن الباقيين . وإذا قصر فيها هؤلاء آخذ الله على ذلك جميع القادرين على تحصيل هذه الخبرة . ولنضرب مثالا لذلك :

(١) عبد الحى الكتاني (١٣٤٦هـ) ١ : ٢٠٢ - ٢١٠ .

(٢) عبد الحى الكتاني (١٣٤٦هـ) ١ : ٣٧٤ - ٣٧٥ .

نقترض أن مجتمعنا يحتاج إلى نوعية معينة من المتخصصين في التنظيم الإداري ، وهذا التنظيم بدوره يحتاج إلى متخصصين في الإحصاء الآلي واستخدام أجهزته الحديثة ، وأن إدارياتنا في الجهة الداخلية وقواتنا المحاربة وتطويرها تتوقف على توفير ذلك حتى نستطيع أن نقابل مسئولية بناء المجتمع وخوض المعركة ، فالإسلام في هذه الحالة يعدّ هذه الدراسات « فرض كفاية » أي يجب أن يقوم به العدد الكافي من المتخصصين الذين يستطيعون القيام به . وإذا ما حدث تقصير في ذلك ، آخذ الله جميع القادرين على التحصيل عن هذا الوضع الذي تركوا فيه مجتمعهم وهم قادرون على تطويره . . يقول ابن عبد البر الأندلسي :

« وقد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه ، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع . . والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترض عليه . ثم درس بعد هذا فرض الكفاية وقال : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في دينهم ودينهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقيين لا خلاف بين العلماء في ذلك . وحجتهم فيه قول الله تعالى :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (١) .

فألزم النفر في ذلك البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم .

والطائفة في لسان العرب ، الواحد فما فوقه .. وكذا الجهاد .. فإذا أظل العدو بلدة لزم الفرض حيثئذ جميع أهلها وكل من قرب منها ، إن علم ضعفها عنه وأمكن نصرتها لزمه فرض ذلك أيضاً ^(١) .

ويرتبط بإنقاذ الوطن هنا كل ما يرتبط بالمعركة ، فتكون الأمة في حشد كامل يبذل فيه كل قادر ما يستطيع من جهد في مجال تخصصه ، مع تنسيق وتكامل بين هذه الجهود جميعاً وكفاية تستطيع أن تصعد بها إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها. إن الإسلام يرى هذا فرضاً دينياً ، كما أنه فرض وطني .

فالعلم هنا للمجتمع ، والإدارة للمجتمع ، والدراسات ليست نوعاً من الترف العقلي ، وإنما ينبغي أن يتنظمها تخطيط شامل ، يراعى احتياجات المجتمع ويحدد لها دراسات علمية موضوعية ، ثم يضع لها أولوياتها ، ويتولى تنفيذها ومتابعة هذا التنفيذ .

١١ - الحصاد

وفي نهاية هذه الدراسة أود أن أعرض وصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه . لقد رأينا كيف استقبل الخلافة ، وكيف عاش فيها ، وعلاقاته مع أصحابه وجمهور المسلمين ، ومواقفه الصلبة من أجل حماية المجتمع . فعندما حضرته الوفاة دعا ابنته - أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وقال لها :

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحلمه ١ : ١٠ - ١١ ط . المنيرية بالقاهرة (بدون تاريخ) وفي هذا الكتاب دراسة مستفيضة عن مكانة العلم في المجتمع . وانظر أيضاً القسم العاشر من كتاب التراتيب الإدارية للكتاني (٢ : ١٦٨ - ٤٤٦) . في تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوي .

« يا عائشة : لقد ولينا أمر المسلمين ، فما استبقينا لأنفسنا من ما لهم شيئاً . لقد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا . ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وما بقي عندي من مال المسلمين إلا هذا البعير الناضح ، وهذا الخادم ، وهذه القطيفة الجرداء . فإذا مت فابعثي بها إلى عمر فإني لا أحب أن ألقى الله بشيء من مال المسلمين » . ومات أبو بكر وجاء من بيته ما أمر به . فأمر عمر بن الخطاب بضمها إلى بيت المال . واعترض على هذا عبد الرحمن بن عوف وكان حاضراً . فكان رد عمر : والله ما خالفت أبا بكر شيئاً لأخالفه ميتاً . للموت أقرب إلى نفسي من مخالفته شيئاً وميتاً .

ثم يكى وهو يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاءوا بعده (١) . صنع أبو بكر هذا وقد رأى كيف فارق رسول الله (ص) دنيانا : فعن عمرو بن الحرث قال : ما ترك رسول الله (ص) عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السيل صدقة (٢) .

يصنع الرسول (ص) هذا في حين أنه ينصح سعد بن أبي وقاص - وينصح المجتمع معه : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها » (٣) .

(١) أبو الفرج بن الجوزي : تاريخ ، عمر بن الخطاب ص ٣٨ - ٣٩ .
 (٢) رواه البخاري عن عمرو بن الحرث . انظر مشكاة المصابيح للتبريزي ٣ : ٢٠٩ رقم ٥٩٦٥ .
 (٣) متفق عليه . انظر مشكاة المصابيح للتبريزي ٢ : ١٥٥ رقم ٣٠٧١ .

خاتمة

بعد هذه الرحلة في العلاقة بين الإسلام والإدارة أود أن أعرض النتائج الآتية :

- ١- أن العمل الإداري - بطبيعته - يتركز على قيم سلوكية. والدين في مجتمعنا أقوى ركيزة أخلاقية . بهذا عشنا ، وعلى هذا نص دستورنا عندما تحدث عن الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، ومصدراً أساسياً للتشريع ، وقواماً لحياة الأسرة .
- ٢ - في ديننا ثروة غنية من الأصول التي نستطيع أن نرفع بها حياتنا إلى أفق أعلى وأرحب . فالإسلام جاء مصداقاً لكل نبي ورسول ، متمماً مكارم الأخلاق ، منادياً بالإحسان والإيتقان في كل شيء .
- ٣ - نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة شاملة تضم الدنيا والآخرة ، المسجد والمجتمع ، ويعد العلم وطلبه - في كل آفاقه التي يحتاج إليها المجتمع - عبادة وواجباً .
- ٤ - العملية الإدارية في الإسلام جزء من كل متناسق ، يقوم على الكفاية الآلية والمستوى الأخلاقي والتنظيم .
- ٥ - العمل الإداري في الإسلام خدمة عامة وتكليف : بدءاً من الخلافة عن رسول الله (ص) كما رأينا في دراستنا لأبي بكر رضي الله عنه ، حتى أبسط وأصغر الواجبات في المجتمع .
- ٦ - العمل الإداري خاضع لمراقبة الشعب ومتابعته وتقييمه على قواعد علمية أخلاقية .
- ٧ - الشورى والحوار أساس في التنمية الإدارية ، ولها مسارها الأفقي بين النظراء ومسارها الرأسي بين مستويات المسؤولية والتنفيذ على الصعيدين المركزي والمحلي .

٨ - فتح المجال أمام الكفايات والاستفادة من الخبرة العلمية أساس في المجتمع الإسلامي .

٩ - الصلة بين الأجيال المتتابة من المسئولية الإدارية قائمة على عرفان الحميل لا الهدم وتشويه الجهد المبذول .

١٠ - وبهذا تصبح التنمية الإدارية تعاوناً بين مستويات إدارة وأجيال وقيادات متتابة ، وإثراء بكل خبرة جديدة ، وتشجيعاً لكل موهبة ، في إطار من أخلاقيات دعانا إليها الإسلام لنبنى مجتمع العلم والإيمان .

الفصل الخامس

القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية في تربية الشباب العربي

بحث مقدم إلى مؤتمر الشباب العربي الذي عقدته المنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية.
المؤتمر الثقافي العربي التاسع بالقاهرة من
١٢ - ٢١ / ١٢ / ١٩٧٠ وثيقة رقم ١٣ .

١ - ما المقصود بالقيم الروحية ؟

أودّ بين يدي هذا الحديث أن نتفق أولاً على مفهوم القيم الروحية . فكثيراً ما يتطرق إلى الدهن أنها مقابلة للأوضاع المادية في الحياة . ولعلّ شيئاً من ذلك جاء إلينا من حضارات وفدت إلى بلادنا ، وحملت إلينا صوراً من الصراع بين الروح والمادة ، وبين الدين والحياة ، وبين رجال الدين ورجال العلم ، فلم يجد العلم أمامه في زحفه المستمر - في بعض الأقطار - إلاّ أن يُنَحِّى جانباً الدين ورجاله ، تنحية كاملة أو جزئية ، وأن يحاول إقامة الأساس الأخلاقي أو التعامل في المجتمع على غير أساس من الدين وما جاء به من قيم ومبادئ .

وإذا كان حديثنا عن القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية محصوراً في دائرة تربية الشباب العربي ، فإن هذا الحديث لا يمكن عملياً ولا موضوعياً فصله عن تيارات الفكر العالمي ، ونحن نعيش في منطقة تمثل قارة وسطى بين قارات العالم القديم ، وملتقى حضارات من طبيعتها الأخذ والعطاء من قديم . فكيف ونحن نعيش في عالم أصبح كالصندوق الرنان تتردد على سطحه أية طريقة تصيب جزءاً منه ، والأخبار فيه عند أطراف الأصابع ، تحرك موجات المذياع أو قنوات التليفزيون ، وتصل إلى قلب الصحراء وأعماق الغابات ، وأعلى البحار ، بل أصبح الاتصال الآن مع الفضاء الخارجي ، تتحرك فيه الأقمار الصناعية على كوكب الزهرة من محطات على كوكبنا الأرضي . .

وأنت وسط هذه التيارات الفكرية التي تموج بها الحياة وتموج بالحياة ، وسط هذا التدافع المستمر والفيضان الذي يحمل الاتجاهات من أرجاء الأرض كافة ليجرى بها في نهر الحياة المندفع إلى الغد . .

أنت وسط هذا كله تحاول أن ترصد الشباب العربى ودور القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية فى تربيته .

ولن أحاول فى هذا الحديث أن أرتقى منبر الوعظ ، ولا أن أردّد وصايا ، ولا أن أضع نصائح تعودنا فى طفولتنا أن نجدها على ظهر كراسات الدرس داعية إلى الإيمان والصدق والنظافة . . وإنما سأحاول أن نسير معاً فى هذا الحديث صديقين يدخلان المكتبة أحياناً ويفتحان القاموس أحياناً ، ويلجان دروب التاريخ ، ويطالعان بعض صفحات النفس الإنسانية العربية بما فيها من جوانب قوة وضعف ، ويحاولان معاً — بدلاً من أن يلعنا الظلام — أن يوقدا فيه شمعة ، وأن يضيفا ولو حجراً واحداً إلى البناء ، ولو كلمة واحدة طيبة ، إلى سفر التربية العربية .

وأعود معك إلى المقصود بالقيم الروحية . ونرى كيف جاءت مادة « روح » فى كتاب الله الكريم « كتاب العربية الأكبر » .

١ — جاءت الروح فى القرآن الكريم بمعنى القوة أو السر الذى به الحياة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (١) . وهذه القوة أو السر أمر مشترك بين الناس جميعاً . . بل بين الإنسان وكل حى . ولا يمكن أن يكون هذا المعنى هو المقصود بالقيم الروحية .

٢ — وجاءت بمعنى الملائكة أو صنف منهم وذلك فى قوله تعالى :

(تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ

أَمْرِ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ) (٢) . وقد قصد بها جبريل

عليه السلام . وذلك في قوله تعالى عن القرآن الكريم : (نَزَلَ بِهِ
الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)^(١) .
وواضح أن حديثنا في القيم الروحية ليس عن الملائكة : أحدهم
أو صنف منهم .

٣ - وقد يقصد به سيدنا عيسى عليه السلام . وذلك قول الله تعالى :
(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)^(٢) ، وحديثنا ليس
عن نبي واحد وإنما عن قيم روحية .

٤ - نأتي بعد هذا إلى معنى رابع يبينه قول الله تبارك وتعالى :
(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ
تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي
بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)^(٣) .

ويذكر الإمام القرطبي^(٤) في تفسير هذه الكلمة أنها « النبوة

(١) سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) سورة النساء : ١٧١ .

(٣) سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) تفسير القرطبي ١٦ : ٥٤ - ٥٥ .

والكتاب والقرآن .. لأن فيه حياة من موت الجهل .. وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب . كما أن الغيث ربيع الأرض .

(رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) . . . هي الأوامر والنواهي الإلهية ،

وهي نور الطريق : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) (١).

والقيم الروحية بهذا ليست أمراً مقابلًا للمادة ، ولا بعيدة عن واقع الحياة اليومية. وأنت لا تستطيع أن تتصور الصدق إلا في إنسان صادق ، والوفاء إلا من إنسان وفي .. الصدق ليس قيمة تنشأ في فراغ .. إنها معاناة في الحياة وصبر على اختباراتها ومواقفها ، ويوضح هذه المعاناة وإيجابياتها في الحياة قول الرسول عليه الصلاة والسلام : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدي إلى الفجور . وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (٢).

بل إن هذه القيم — بعد المعاناة — تستقر في النفس حتى تصبح لها طابعاً ، وإلى هذا المعنى نستطيع أن نرى توجيه الرسول (ص) لنا :

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٢) أخرجه الستة إلا النسائي : انظر تيسير الوصول للشيباني - ٢ : ٣٢٠

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب رية »^(١) . لا بد إذن أن ترتبط هذه القيم بواقع الحياة اليومية ، وأن يكون من الفرد والجماعة المعاناة والمصابرة حتى تصبح قوالب سلوكية .

٢ - كيف ترتبط القيم الروحية بالحياة ؟

وإذا كان هناك هذا الارتباط بين القيم الروحية والحياة ، فلنحاول معاً أن نرى جوانب هذا الترابط :

١ - أنها تحدد المستوى الأخلاقي في العمل ، مهما تكن طبيعة العمل الذي يقوم به الإنسان في خدمة مجتمعه :

من ناحية السلطة مثلاً يتعامل الفرد منا مع رؤساء وزملاء ومرءوسين وبين يديه مصالح أناس ، منهم من يستطيع مراجعته ، ومنهم من يصعب عليه أن يتخذ إلى المراجعة سبيلاً . وأفضل أخلاق الإنسان ما يظهر مع من لا يستطيع مراجعته . . وفي هذا الضوء نستطيع أن ندرك أبعاد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »^(٢) . فاهرة لن تستطيع الدفاع عن نفسها . وفي هذا الموقف تتجلى أخلاق الإنسان على حقيقتها .

٢ - أنها تدفع الإنسان إلى أن يعمل : ذلك لأن هذه القيم - في حياتها - مواقف في الحياة . والارتباط قوى فيها بين الكلمة والفعل . ويذكر الإمام ابن كثير الدمشقي في مقدمة تفسيره عن ابن مسعود قال :

(١) جزء من حديث رواه أبو الجوزاء عن الحسن بن علي عن رسول الله (ص) . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي . انظر تيسير الوصول ٢ : ٣٢٠ .
(٢) الحاكم عن أبي هريرة : انظر الجامع الصغير للسيوطي ١ : ١٥ ، ورواه البخاري عن ابن عمر .

كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي عليه الصلاة والسلام . وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(١) .

وهذا الربط بين الكلمة والفعل هو الذى يجعل الكلمة خلاقة ولوداً يجعلها أمماً لأعمال كثيرة . ولعل من أشد ما نعانى منه : عقم الكلمات وعقم القرارات . عقمها عن أن تلد أعمالاً عظيمة .

وهذا الانفصال بين الكلمة والقول والعقل حذرنا منه ربنا فى قوله :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ^(٢) .

بل إن ربنا ينهانا عن التراخى فى أداء العمل ، ويعدّه من صفات المنافقين فى قوله : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) ^(٣) .
ويعرض القرآن بعد هذا وصفاً للانفصال فى المنافقين بين القول

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ١ - ٢ ط . مصطفى محمد ، القاهرة .

(٢) سورة الصف : ١ - ٤ . (٣) سورة التوبة : ٥٤ .

والفعل فيقول : (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزُقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَخَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) (١) .

ويصل الترابط بين الكلمة والعمل متمثلاً في موقف نبيل ، إلى أفق رفيع نراه في كلمة للإمام على كرم الله وجهه :

قيل له في بعض الحروب : « إذا جالت الخيل أين نطلبك ؟ قال : حيث تركتموني » (٢) .

٣ - أنها تحول بين الإنسان والانحراف : ونماذجها كثيرة في قصص الأنبياء :

(١) بدءاً من قصة ابني آدم : (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ، إِنِّي أَخَافُ

(١) سورة التوبة : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أي أنه ثابت في مكانه الذي اختاره في الموقعة لا يتركه مهما اشتد به البأس .

انظر : على الجندی وآخرين : سجع الحمام في حكم الإمام ، ص ١٧٥ ط .
الأنجلو ، عن ابن أبي الحديد ، وفي الألف المختار .

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١) .

(ب) . مروراً بقصة النبي الشاب الطاهر يوسف عليه السلام
مع امرأة العزيز : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (٢) . وقوله تعالى على لسان يوسف :
(رَبِّ السُّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ .
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ) (٣) .

(ح) وهي قيم تعلو فوق إغراء الحياة تطلعاً إلى ثواب الآخرة
في قوله تعالى عن امرأة فرعون : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ
آمَنُوا ، امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ
بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ) (٤) .

(١) سورة المائدة : ٢٧ - ٢٩ . (٢) سورة يوسف : ٢٣ .

(٣) سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤ . (٤) سورة التحريم : ١١ .

(د) وتطبيقاتها كثيرة عبر التاريخ في قصص الأنبياء والمصلحين في مستوى القيادات والقواعد ، كما سنرى في ثنايا هذا البحث .
فالقيم الروحية بهذا هي :

١ - الحافظ للمستوى الأخلاقي

٢ - والدافع إلى العمل .

٣ - والمانع دون الانحراف

٣ - ولكن : لماذا قام الصراع بين

القيم الروحية والجوانب المادية والعلم ؟

في تراثنا العربي لقاء دائم بين الروح والمادة .. وهما جانبان من جوانب « الحياة » ؛ وفي الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم ما يوضح أن « الحياة » هي ما يعنى به الدين . جاء القرآن لينذر من كان حياً .

والدين حياة الإنسان : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١) .

بل إن الروح بنص القرآن الكريم : (مِنْ أَمْرِ رَبِّي .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢) .

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٨ .

والدين كما يصوره القرآن « علم » . وأولو العلم هم أولى الناس
بالإيمان . وإلى هذا يذهب قول الله تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

ومكانة العلم في القرآن والدعوة إليه وتقدير أهله وجعله سبيلا إلى
الإيمان أوضح من أن نعيد القول فيها (١) .
وطلب العلم والرحلة من أجله وآداب العلم والتعليم .. كلها موضوعات
لها في تراثنا مكانة كبيرة (٢) .

صحيح أن بعض علمائنا لا قوا عتاً من أجل آراء قالوا بها : كما في
محنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل ومن قبله الإمام مالك رضى الله عنهما .
ولكن الصورة العامة في العلاقة بين الدين والحياة ، وبين العلم
والدين ، وبين القي الروحية والواقع ، تظل في عهود الازدهار في أرضنا
صورة مشرفة بجمال القواعد والنماذج التطبيقية معاً .
ونحن لا نريد أن نعطي تاريخنا ذلك اللون الوردى الذى يبعد بنا
عن أرض الواقع ، ولا أن نصور البشر فيه جيلا من الناس يخلو من
التناقضات الفردية والاجتماعية . ولكن على أساس من الدراسة المقارنة

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

(٢) يراجع للكاتب أبحاث : الإسلام والعلم ، والإسلام والتطور في
كتاب « الدين والحياة » الجزء الأول من ص ٧ إلى ص ٤٨ . من مطبوعات
الاتحاد الاشتراكي العربي . القاهرة ١٩٦٧ .

(٣) يراجع على سبيل المثال : ابن عبد البر القرطبي : جامع بيان العلم
وفضله . وهذا الكتاب من خير ما كتب في منزلة العلم في الإسلام والصفات
التي ينبغي توافرها في العالم في التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

نستطيع أن نجد في حضارتنا جوانب لم تسعد بها حضارات في أقاليم أخرى ، في حرية التعبير والرأى ، وقلة المصادمات بين القيم الروحية التي يعيش بها المجتمع والآفاق الجديدة من التطور التي تفتح أمامه .

وفي عهود ازدهار حضارتنا كان الفارّون من عسف حكامهم يلجئون إلى أرضنا : لجأ النساطرة فراراً من عسف الرومان إلى بلاد فارس ، فاستقروا في الرها ، ومارسوا عبادتهم ، وعكفوا على علومهم ، ووفر لهم المجتمع الإسلامي بعد هذا أسباب الحياة المطمئنة . بل إن اليهود عندما اشتد بهم البطش الأوربي لجئوا إلى المشرق والمغرب العربي ، ووجدوا في أرض العروبة والإسلام ما يسعهم رحمة وبرّاً ، ووجدوا طريقهم إلى الوظائف العامة . ومع أن الصهيونية العالمية ضربت على يد الخير العربية الإسلامية التي آست جراح اليهود ، وزرعت في قلب الوطن العربي خنجراً مسموماً تمثله إسرائيل ، وأشاعت الخراب والدمار في أرض بارك الله فيها ، وامتدت بالنيران إلى المسجد الأقصى وبالعدوان على الأرض .. فإن حقيقة كبيرة في تاريخنا تبرز فوق الجراح والآلام هي عظمة القيم الروحية التي عاشت بها أرضنا عبر التاريخ : تتمثل في السلم والحرب ، وتعديل في الغضب والرضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا

قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (١).

ولم يحاول رجال الدين عندنا أن يتناولوا النصوص الدينية ويفسروها

تفسيراً حرفياً متحدين في هذا الحقائق العلمية : وهذا هو الطريق الوعر الذى سار فيه بعض رجال الدين فى أوربا ، فحفروا أخدوداً عميقاً بين العلم والدين . أخدوداً ألقوا فيه بزهرة من رجال العلم ، وأعطوا الدين طابعاً ليس من جوهره ، وأدوا بهذا إلى تمزق نفسى عانت منه أجيال وشعوب ، وأورثت اختلافاً وفرقة .

ولقد أثر هذا الخط الفكرى فى مجرى التاريخ الأوربى زهاء خمسة عشر قرناً^(١) ووفدت آثار من هذه العداوة أو على الأقل الجفوة بين الدين والعلم إلى ديارنا ، عندما قوى احتكاكنا بأوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ولقد حدث هذا فى فترة من فترات الضعف والانحسار الإسلامى .. فى حين كان المد الأوربى عالياً متقدماً .. ونسينا — أو نسي بعضنا — ما بين يديه عندما جذبت عينيه الأضواء الجديدة فى أرض الغرب .

نسينا أو تناسينا مكانة العالم فى الحياة ، ومكانة القيم فى حياة العالم والمجتمع معاً . نسينا أن هذه الأرض هى التى اختارها الله — والله أعلم — حيث يجعل رسالته — لتكون الرباط مع السماء ، وأهلها الأمة الوسط . ومن أبنائها من نزل عليه وحى الله . ومن صعد إلى السماوات العلا .. وأن هذه الأرض وهذه الأمة بمقوماتها كانت المنطلق لدعوات الأنبياء بدون عصبية لونية أو إقليمية أو طبقية : الناس لآدم ، وآدم من تراب ، وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

ليست هناك فى تاريخنا دماء بين الروح والمادة ، ولا بين العلم والدين .. إلا نقطاً متناثرة كأنها علامات التحذير من الوقوع فى الخطأ نفسه .. رجل العلم فى تاريخنا على دين .. ورجل الدين يخدم العلم ..

(١) جلال مظهر : الحضارة الإسلامية من ص ٣٦ إلى ص ٦٥ ط . مركز كتب الشرق الأوسط . القاهرة .

وقيم الروح ومبادئ الأخلاق أساس مشترك للحياة بدون فيصل بين الأخلاق العامة والخاصة ، ولا بين الكلمة والعمل .

٤ - مصادر القيم الروحية :

ولقد وسع تراثنا كل الأرض ليجعل منها مصادر للقيم الروحية ومبادئ للأخلاق الفاضلة ..

وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم وجدته كتاباً إنسانياً شاملاً لا يقتصر على حياة جيل من الناس أو قطر من الأرض . .

١ - كتاب له امتداده الزماني الذي يعود بك إلى النشأة الأولى .. بل يعود إلى خلق السموات والأرض ، ويتابع معك الرحلة عبر الحياة إلى الجزاء الآخروي : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ . وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (١) .

٢ - وله امتداده المكاني : وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أنزله بلسان عربي مبين ، فإنه لا يقتصر على أخبار العرب ، وإن أعطى أنبياءهم جانباً من عنايته : إسماعيل وهود وصالح ، ومحمد - عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام - وعبر بعنايته حدود العالم العربي ، فقص علينا أخباراً نسمع فيها قول الله عن ذي القرنين : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) ، و(حتى إذا بلغ بين السدين) .. هذا الاتساع المكاني يوحى إلينا بالتماس العبرة حيث نجدتها : من مطلع الشمس ومغربها .

٣ - وهو يقص علينا قصصاً في موضوعات متنوعة المناشط
اقتصاديّاً وتخطيطيّاً كقصة يوسف ، وإنشائيّاً كما في قصة ذى القرنين ،
ودفاعاً عن العقيدة وتأصيلاً لها كما في قصص نوح وإبراهيم ومن جاء
بعدهما من الأنبياء ، ودفاعاً عن حق الفقير ومحاربة الاستغلال كما في قصة
شعيب ، وتنظيماً للسلم وبناء المجتمع ، والحرب ودفاعاً عن الحق ، كما في
قصة النبي عليه الصلاة والسلام ، وصبراً على الأذى ممن جاءهم الحق
كما في قصة موسى مع بني إسرائيل ، ودعوة إلى الحق وتصديقاً به كما في
قصة عيسى عليه الصلاة والسلام .

هذه جوانب ثلاثة من التكامل الزمّنى والمكانى والموضوعى نراها
في القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية التي نزلت في أرضنا . وفيه
يخاطب الله رسوله موجهاً هذه الأمة :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ . وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (١) .

وهذا الانفتاح الزمّانى والمكانى والموضوعى في مصادر القيم الروحية
ومبادئ الأخلاق يزداد ثراءً وخصوبة بأن تراثنا الدينى لا يقتصر على
طبقة واحدة أو طائفة من الناس فيجعلها القدوة والأسوة .

هـ - أبطال مجهولون :

والقرآن يعطينا مجموعة من القصص عن أبطال مجهولين لا نعرف أسماءهم ولا نعرف ديار بعضهم يقيناً ، ولم يعن القرآن الكريم بتركيز الأضواء على عامل الزمان والمكان في هذه القصص ولا على ذكر أسماء الأبطال .

وهذه نقطة في مصادر القيم الروحية تحتاج منا إلى وقفة طويلة ، قد لا تتسع لها هذه الدراسة . ولكن أود أن أؤكد حقيقة كبيرة : هي أن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ نبوات ورسالات بالمعنى الضيق لهذا المفهوم . ولكنه يعرض لنا قصصاً عن أبطال مجهولين ظهرُوا مناصرين لارسل والرسالات والحق حيث كان .. أبطال من القاعدة ، من عرض الناس يقفون الموقف النبيل دفاعاً عن الحق .. منهم من يلاقى الموت ، ومنهم من ينجو ليؤكد أن هذا البطل المجهول كان يستهدف الحق وحده مهما تكن نتيجة موقفه :

١ - هناك نموذج انفرد به القرآن عن مؤمن آل فرعون . وقد جاء هذا الموقف منفصلاً في سورة غافر ابتداء من قوله تعالى :

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) (١) إلى قوله تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

وفي القصة حوار خصب بين هذا المؤمن المجهول والذين قاوموا الحق ووقفوا في صف الطغيان . ولكن ما اسم هذا البطل المجهول ؟ لا ندرى . والذي نحسه في هذه القصة من القرآن الكريم تأكيد بطولة مجهولة تكون نوراً لكل بطل مجهول . وما أحوجنا إلى هذه الأنوار تضيء الطريق لكثيرين يعملون من أجل العروبة والحق لا تطلع على أعمالهم إلا عين الله التي لا تغفل ولا تنام .

٢ - وهناك نموذج آخر نقرأه في سورة يس عن ذلك البطل المجهول الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينصر رسولين عززهما الله بثالث ، وتوعدهم القوم بالرجم والإيذاء ويبرز هذا البطل مقبلاً من أقصى المدينة ، حيث يستطيع أن يكون بمفازة من الإيذاء والموقف الصعب .. جاء يسعى مسرعاً إلى مناصرة الحق بدون تباطؤ .. ويحاور القوم مؤكداً الحق الذي يحمله .. وإذا كان الله قد وفى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا ، وإذا كان مؤمن سورة يس قد استشهد وأرانا الله جزاءه في قوله تعالى :

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (١) .

فإن الحقيقة الكبيرة هي : أن البطل الذي وقاه الله السوء والبطل الذي لقي الله شهيداً كانا ينطلقان من قاعدة الإيمان ، وأن مردهما - طال العمر أو قصر - إلى رب لا تضيع عنده الودائع : (يَايْتَهَا النَّفْسُ

الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّاتِي) (٢) .

(١) سورة يس : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

وثمة نماذج أخرى يمثلها أصحاب الكهف وهم فتية - أى شباب - آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وما جاء فى سورة الكهف فى قصص العبد الصالح الذى لقي موسى ، والمثال الذى ضرب به الله فى قوله تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) (١) وما جاء فى قصة ذى القرنين .. ثم قصة امرأة فرعون بإيمانها العميق . كل هذه النماذج ترينا أن القرآن ليس مجرد تاريخ أنبياء ورسول ، وإنما هو تاريخ الإنسانية : برجالها ونسائها ، بقادتها المعروفين وأبطالها المجهولين . بشيوخها وشبابها . بقطاعات الحياة المتعددة : اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا . وفى كل ذلك تروى ضخمة من القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية تقابل النفس الإنسانية فى كثير من حالاتها ومواقفها وتكون لها زاداً يعين على السير فى آفاق الحياة .

٦ - الشباب والدين :

وأول قضية تقابلنا فى هذا الموضوع هى فترة الشك التى تقابل الشباب حين يفتتحون على الحياة .. فإذا فى النفوس ذلك القلق الباحث عما حوله ، والمتطلع إلى الآفاق ليرى مكانه فى هذا الوجود .. إنها تجربة جديدة تحاولها أجنحة الفكر التى نبتت مع الشباب . وهى تجربة طبيعية يخوضها الشباب فى حوار مع نفسه . أو فى محاولته التغلب عليه

مستعيناً بغيره ، ولقد عرضت أحاديث الرسول (ص) لذلك ^(١)

١ - « إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل به أو تتكلم » . عن أبي هريرة ، متفق عليه .

٢ - « جاء ناس من أصحاب الرسول (ص) إلى النبي (ص) فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أو قد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان » . عن أبي هريرة رواه مسلم .

٣ - « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هكذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد في ذلك شيئاً ، فليقل آمنت بالله وبرسوله » . عن أبي هريرة متفق عليه .

(١) وأول ما نخرج به من هذه الأحاديث أن ما جاء في كتب الحديث تحت عنوان الوسوسة ، وما يمكن أن نطلق عليه الحوار .. داخلياً كان أو خارجياً إنما هو أمر قديم في النفس الإنسانية . وأن تراثنا عرض له . فالظاهرة في ذاتها طبيعية ، يمكن أن نقابلها كما نقابل أية قضية من قضايا الحياة بعامة ، والشباب بخاصة ، بالدراسة الموضوعية المستأنية .

(٢) وأن الرسول عليه الصلاة والسلام عدَّ هذا الحوار النفسي صريح الإيمان ... وأنه المخاض الذي يأتي من بعده ميلاد الإيمان على أساس راسخ : أن يخوض الشباب التجربة وأن يخرج منها كما تخرج السفينة سليمة من العاصفة . وأنت لا تستطيع أن تحكم على شيء إلا بعد التجربة . بل لا تستطيع أن تعتمد على شيء بدون تجربة : الطائفة

(١) انظر باب الوسوسة . الفصل الأول في مشكاة المصابيح للتبريزي ١ : ٢٦ و ٢٧ الأحاديث من ٦٣ إلى ٧٢ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي . دمشق .

قبل طيراتها . الاختراع الحديد قبل شيوع استعماله . الجندى قبل أن يخوض المعركة . لا حرج إذن في أن يمر الشاب في هذه التجربة وأن يتمرس بهذا الحوار الداخلى والخارجى معاً .

(٣) ولننظر إلى القرآن الكريم في تأكيده الإيمان ، وفي الحوار الحصب الذى يديره مع غير المؤمنين والأدلة التى يسوقها على التوحيد . بل أنت واجد في القرآن نموذجاً للحوار الفكرى ، وهو إذا كان يسجل فيما يسجل قضايا العصر عند نزول القرآن ، فإن الاتجاه في ذاته يعطينا الأسلوب الفكرى الذى نستطيع أن نقابل به قضايا الحياة المتطورة^(١).

(٤) ولعل من الأفضل في دراسة قضايا الشباب ألا نبدأ بتصور هذه القضايا كما نحس بها نحن . وإنما البدء الطبيعى هو الاستبانة في هذه القضايا كافة . أن نضع أيدينا على نبض الشباب ، وأن نسأله عن احتياجاته ، وأن يأتى البرنامج بعد هذا نتيجة أمرين :

ما يقوله الشباب ، وما نود نحن أن نقوله للشباب . وقد تكون ظاهرة القلق والشك طبيعية ، ولكن مجالاتها تتباين من جيل إلى جيل مع تطور الحياة : هناك في عالمنا المعاصر هذا الصراع بين الدول المتقدمة والدول النامية . بين الذين يعرفون والذين لا يعرفون . بين الذين يملكون والذين لا يملكون . هناك القلق على مستقبل الحياة الإنسانية من حرب شاملة . هناك توجيه ثروات العالم إلى سباق التسلح ، في حين أن العرى والجوع لا يحظيان إلا بالقليل من العناية . هناك الإخفاق المستمر لمشروعات

(١) يمكن أن يرجع في هذا الموضوع إلى المراجع الآتية :

* حسن صعب : ١ - الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية . ط . بيروت .

٢ - تحديث العقل العربى . ط - بيروت .

* وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ط - بيروت . أحمد موسى سالم

- الإسلام والقضايا المعاصرة . ط . القاهرة .

عبد العزيز كامل : مواقف إسلامية - سلسلة اقرأ - دار المعارف . القاهرة .

التنمية العالمية والمشروعات الإنسانية الكبيرة ، كعقد التنمية للأمم المتحدة . هناك الصراع العنصرى والطبقى والقتل الجماعى فى فيتنام وفلسطين والأرض العربية السليبية .. وينظر الشباب بعد هذا باحثاً عن العدل ، وعن التأييد الإلهى لقوى الخير فى هذا العالم ، وعن بصيص من النور وسط هذه الغيوم المتكاثفة ..

كل هذه الجوانب تلقى ظلاً كثيفاً على قضية الإيمان ، وعلى التصديق بجدوى القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .. وقد يشتد التمزق بالشباب ، كما حدث فى كثير من أقطار العالم الغربى ، فأغرق نفر من الشباب تمزقه فى ضباب التخدير وفى غيوم الضياع ، تاركاً لشهواته العنان فى صعلكة فكرية ومادية وروحية ، كأنها الرفض أو الاحتجاج على أزمة الحياة التى يعيشها كوكبنا الحائر .

قضية الشك إذن مطروحة ولكننا فى الوقت نفسه لا نعيش فى « بيزنطة » وأمامنا فى الوقت نفسه قضايا مصيرية ، نقابلها ويقابلها شبابنا : عندنا قضية مقدساتنا السليبية وأرضنا المغتصبة . عندنا العدوان على حاضرنا وعلى تاريخنا . فالحرب بيننا وبين أعدائنا لا تمتد فقط على الجبهات المحاربة ، وإنما تمتد فى العمق الأهل بالسكان ، وعلى جبهة تاريخية طولها ثلاثون قرناً وفى أعماقها تراثنا الغالى من الإنجازات والقيم ..

ونحن نخوضها ونعلم أن أعز ما تملكه الإنسانية من قيم الخير وشرعية الإنصاف والعدل مهدد بالزوال ..

وددت بذلك أن أضع القضية فى أبعادها الحقيقية ما وسعنى ذلك ، ولكيلا أجعل من هذه القضية مسلكاً جانبياً تتسرب فيه حيوية شبابنا بعيداً عن أرض الواقع الملهب الذى نعيشه ، والغد المأمول الذى نعمل من أجله .

ذلك لأننا - في الوقت الذي نحتاج فيه إلى دراسة قضايا الشباب العربي - محتاجون إلى أن نضع قواه - ما وسعنا ذلك - من أجل الحفاظ على الأرض والتراث والمستقبل ، ومحتاجون إلى ما يمكن أن نسميه « اقتصاديات الجهد » ، فنوجه قوانا إلى أفضل أهدافها : فلا تأكل الأبحاث النظرية حيوية الشباب ، ولا يتجه الشباب إلى العمل بدون إطار فكري واضح .

وهذه الاستبانات التي نقوم بها ، نحن في حاجة إلى مراجعتها مراجعة دورية وإقليمية حتى نعرف الجوانب المشتركة والمستمرة والإقليمية في هذه القضايا . ولكن مع هذا كله ، أود أن أربط موضوعيًا بين مرحلة الشك وبين نقطتين جاءتا في دليل المناقشة وهما :

- ١ - النماذج البشرية من التاريخ العربي التي تعد قدوة للشباب .
- ٢ - تصفية الفكر الديني والمأثورات الأخلاقية العربية من الشوائب الدخيلة .

٧ - نظرنا إلى التاريخ وأثرها على تكوين الشباب العربي :

وكثيراً ما نلجأ في عرض التاريخ العربي بعامة والإسلامي بخاصة إلى طريق « المناقب » وأن نركز حين نعرض هذا التاريخ على أفضل ما فيه من قسم شائعات من الأفراد والأفعال . ولا شك في أن الأثر العميق الذي يتركه هذا العرض في نفوس الشباب هو الإعجاب والتقدير . ويأتي بعد هذا أثر آخر :

- كيف أستطيع الصعود إلى هذا المستوى ؟
 - وإذا كان الصعود ممكناً ، فهل ينجح في هذا الصعود كثيرون ؟
- وينتهي الشباب إلى إجابتين لكل منهما أثرها في نفسه :

الأولى : أن ذلك ممكن ، ويجب عليه أن يلزم نفسه به كفرد ، وأن تتخذ الدولة — على مستوى المجتمع — جميع الوسائل التي تمكنه من الصعود إلى هذا المستوى .

الثانية : أن ذلك غير ممكن . وأن هذه حياة أنبياء ورسول ، وأنها قمع شائعات من الحوارين والصحابة الذين اتبعوهم بإحسان . فليس أمامنا إلا الإعجاب . . أما الصعود ، أو مجرد محاولة الصعود ، فهذا أمر يخرج عملياً عن طاقة البشر في ظروفنا التي نعيشها .

وأنت واجد في الحياة هذين النموذجين من الشباب . وقبل أن نتابع دراسة الاتجاهين يحسن أن نقف وقفة أطول عند مصادر العرض المثالي أو عرض المناقب في مجتمعنا :

بين المدرسة والمسجد :

ذلك لأننا في اختيارنا لموضوعات التربية لأبنائنا — يستوى في هذا ما يتلقاه الطالب في المدرسة وما يسمعه من خطيب المسجد — نعلم كثيراً إلى اختيار هذه الروائع والتركيز عليها . ولا نعطي صورة متكاملة لأحداث العصر . وإنما نلجأ إلى طريقة القصص المختار نجتمعها في « عقد فريد » أو « مستطرف » أو في « عيون الأخبار » أو « الأملى » . وهذا الاختيار يتحرى دائماً إبراز أروع ما في الواقع الديني . ونحن بهذا نزيد من تعميق هذين التيارين في ذهن الشاب أو على الأصح تكوين نوعين من الشباب :

١ — النوع المثالي المؤمن بهذه الروائع وإمكانية تطبيقها وشدة نقده مجتمعه على أساسها .

٢ — النوع السلبي الذي يرى في هذه الروائع أموراً لها — إذا أحسن الظن بها — قيمتها التاريخية بدون أن يحاول الصعود إليها .

فالمدرسة والمسجد يتعاونان بدون تخطيط سابق على تكوين قطاعات من الشباب تحس في نفوسها : إما المتناقضات العميقة بين مصادر القيم الروحية والواقع الذي نعيش فيه ، وإما نوعاً من اللامبالاة أو السلبية : ينظر إلى الدين وإلى مصادر القيم الروحية كما يقرأ كتاب تاريخ ، ليس فيه إلا قصص الأولين .
فما موقف القرآن الكريم من هذه القضية ؟

٨ - خريطة اجتماعية :

لو رجعنا - على سبيل المثال لا الحصر - إلى سورة التوبة لوجدنا فيها خريطة لمجتمع المدينة في السنة التاسعة للهجرة قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام - وهي بهذا حصيلة جهاد طويل استمر ثلاثة وعشرين عاماً .
هل كان تصوير القرآن الكريم لهذا المجتمع كأن كل من فيه كانوا على الإيمان والخير والإقبال على العمل الصالح ؟
هل أعطانا القرآن الكريم صورة مثالية؟ أو أعطانا صورة من صور الكفاح من أجل الخير ، صورة مجتمع تتصارع فيه القوى المؤمنة والقوى المنافقة ، وتحيط به العداوات ، ويتعاون فيه المنافقون مع الكفار في مكة وأرض الروم ، ويدبرون المؤامرة بعد المؤامرة ؟
هل استطاع هذا المجتمع أن يقضى على المتناقضات كلها فيه ؟
وهل من طبيعة أى مجتمع أن يستطيع القضاء على كل ما فيه من متناقضات ؟

لقد صور لنا ربنا تبارك وتعالى في هذه السورة النفس الإنسانية في إقبالها على الله ، وفي اضطرابها بين نوازع القوة والضعف ، في إثارةها للجهاد تارة ، وفي إثارةها للدعة تارة أخرى . صورها وهي مؤمنة مقبلة على الله ، وصورها وهي مدبرة متأمرة على الإسلام . وكل هذا في إطار

مكانى هو المدينة المنورة ، وفى مدى زمنى هو حياة الرسول الأعظم ،
وفى ذروة بلغت قوة الإسلام فى غزوة تبوك عندما كان جيش المسلمين
ثلاثين ألفاً ، والفرسان منهم عشرة آلاف ؟

وما موقف الرسول من هذا كله ؟ وما موقف الصحابة ؟
إننى أعتقد أن الدراسة العميقة لسورة التوبة — على سبيل
المثال — ترينا أن الحياة تقوم أساساً على التدافع المستمر بين قوى الخير
والبناء ، وقوى الشر والهدم .

وأن صورة المجتمع الإنسانى الذى خلا من كل العيوب ، وفرغ
من كل التناقضات ، وتطهرت نفوس أفرادها من كل الأدران، صورة
لا نستطيع أن نجد لها أساساً فى كتاب الله .

ترى : هل نحن الذين نضع صورة وردية لمجتمعات فاضلة نجعل
أبناءنا يؤمنون بها وهى غير واقعية ولا ممكنة التحقيق ، ثم نوقعهم فى خرج
حين يجدون الفارق الكبير بين الصورة والواقع ؟

ترى : هل نحن الذين نحتاج إلى مراجعة أنفسنا فى عرض المجتمعات
الإنسانية عرضاً موضوعياً قرآنياً ؟ (١) .

إن هذا العرض هو الذى يدعو الشباب إلى التمسك بالحق وإلى الكفاح
ويزيده استمساكاً بالقيم الروحية والأخلاق الفاضلة ، على أساس
الواقع ، مؤمناً أن عليه أن يسجل الخطوة بعد الخطوة ويحقق الأمل بعد
الأمل ، وهو إن تعثر فى الطريق يعلم أن يد الله تأخذ بيده ونور الحق
يضىء له الطريق .

إننى أحس أننا أحياناً — أو كثيراً — ما نعطي شبابنا صوراً غير
متوازنة وغير موضوعية عن المجتمعات الإنسانية ، فإذا ما تمزقت نفوسهم

(١) انظر للكاتب على سبيل المثال دراسة منهجية وتطبيقية لهذا الموضوع
فى كتاب دروس من غزوة أحد . ط . دار المعارف ، القاهرة — وكانت كتابته
بعد النكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

بين الصورة والحقيقة ، وفقدوا الاتزان الذى يعينهم على السير ، ويحول بينهم وبين الانحراف أو الاندفاع ، عدنا إليهم نحاسهم ، ونحن المسئولون أولاً عن منهج التوجيه . هذا الانحراف قد يكون تعجلاً لمراحل التطبيق وقد يزداد التعجل فيصبح انعزالاً عن المجتمع أو ضيقاً به أو سلبية فيه ..

من أجل ذلك أود أن نعرض النماذج الإنسانية والاجتماعية للشباب عرضاً موضوعياً إنسانياً ما وسعنا ذلك .

ولا نستطيع أن نتصور صبر الرسل إلا بمكايد المنافقين والكافرين . ولا يضير المسيح عليه السلام أن خانه يهوذا وهو الذى عاش معه . ولا يضير موسى أن لقي هذا العنت من بنى إسرائيل ، ولا يضير رسولنا عليه الصلاة والسلام أن لقي من صنوف الإيذاء من المشركين والمنافقين ما سجله القرآن الكريم وكتب الأحاديث والتاريخ حتى زادت أساليب إيذائهم على الثلاثين .

بل إن إيمان المؤمنين ليتجلى إذا ما احتك بهذا الكفر والنفاق والشرك والانحراف ... وهذه القوى كلها كانت تعمل متفاعلة في مجتمعات الأنبياء . فكيف بمن جاءوا بعدهم أو بينهم ؟ يقودنا هذا إلى منهجنا في عرض النماذج البشرية التى تمثلت فيها القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .

وقد لا يتسع مجال القول في هذا البحث لتفصيل ذلك ، ولكنى أود أن أركز على نقطة رئيسية هى عرض النماذج في إطارها الاجتماعى وفي بيئتها الحضارية ومصادر تكوينها ، ونموها وتفاعلها مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإضافات التى استطاعت القيام بها والكفاح النفسى والاجتماعى الذى قامت به حتى استطاعت أن تحقق هذه الإضافات .

هذا العرض المتكامل سيقودنا إلى تكوين نظرية متوازنة عند الشباب

بين الفرد والجماعة . بين جوانب الحياة الفكرية والتطبيقية . بين الدين والحياة . وسيشعر الشاب العربي حينئذ بهذه القيم صديقاً يسكن إليه ، ونوراً يهديه في طريق الحياة ، وزيتاً يوقد منه مصباحه ، ومثابة يعود إليها إذا ما تجاذبته تيارات الحياة . ويستطيع أن يحس ويعلم صدق مدى ما تستطيع حضارته أن تساهم به في الحاضر بعد أن ساهمت في الماضي في التراث العالمي ، ودورها في حل قضايا الكبرى (١) .

٩ - خاتمة :

وأرجو أن نتعاون معاً على أن تكون هذه البحوث أساساً لمادة فكرية تقدم إلى الشباب العربي في مرحلته المصيرية التي يمر بها تعين على تناول قضايا جميعاً ، في عرض مبسط سهل التناول والتداول بحيث تكون عندنا « مكتبة الشباب العربي » تربط الشباب بماضيهم ، وتزيد قدرته على التفاعل مع حاضره والعالم من حوله ، من أجل مستقبل أفضل لوطنه وللإنسانية .

(١) على سبيل المثال للمؤلف : الإسلام والتفرقة العنصرية . ط - اليونيسكو (١٩٧٠) باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية . وأعمال مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، الدورة الخامسة (ذو الحجة ١٣٨٩ هـ - فبراير ١٩٧٠) وعنايتها بقضايا الشباب : ١٩٧٠

الفصل السادس

الإسلام والتطوّر

منهج البحث :

١ - يمكن ابتداء أن نطرح سؤالين :
(أ) إذا كان كل شيء في المجتمع ثابتاً ، فكيف يستطيع أن يقابل الظروف المتغيرة التي يفرضها تطور الحياة ؟
(ب) وإذا كان كل شيء في المجتمع متغيراً ، فكيف يستطيع المحافظة على شخصيته وملامحه الرئيسية ؟

إن المجتمع إذا تيسر على أوضاع يعيش فيها ، ورفض باسم المحافظة أن يتقبل كل جديد ، حكم على نفسه بالانزواء ثم الفناء . لا يختلف في هذا عن كائنات عاشت في عصور جيولوجية - كالزواحف العظيمة - ولم تستطع أن تتأقلم مع الظروف المتطورة فبادت ولم يبق منها إلا آثارها بين طبقات الجليد ، أو هياكلها في الكهوف وبين الصخور . .

ومن ناحية أخرى : إذا كان كل شيء في المجتمع عرضة للتغير . . العقائد ، القيم ، الأخلاق ، الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية - إذا كان كل شيء متغيراً ، ما استطاع مجتمع أن يحافظ على ذاته وكيانه . .

والنتيجة المنطقية التي نستطيع أن نخرج بها من هذا : أن المجتمع ينبغي أن يجمع بين المحافظة على مقوماته والاستجابة لحاجات الحياة المتطورة . . وبعبارة أخرى هناك نواح ينبغي أن يحافظ عليها المجتمع ، ونواح أخرى ينبغي أن يطورها المجتمع ، بحيث يستطيع أن يحافظ على شخصيته ويتطور في الوقت نفسه .

وعلى هذا نستطيع أن نخرج من السؤالين اللذين طرحناهما في صدر هذه الفقرة بسؤال جديد :

— ماهى نواحي الثبات ونواحي التطور فى المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ؟

فالبحث إذن سيقسم إلى قسمين : يعرض أولهما للجوانب التى يؤكدتها الإسلام كخطوط مستمرة فى المجتمع ، ويعرض القسم الثانى للجوانب التى يفرض الإسلام على المجتمع تطويرها حتى يستطيع أن يستجيب لحاجات الحياة ويرتقى بها دائماً . .

والانحراف هنا يكون بأحد طريقين :

الأول : تغيير الجوانب الأصيلة .

الثانى : تجميد الجوانب المتطورة .

وفى كل من هذين القسمين سندرس المجتمع الإسلامى الأول ثم نقارن ذلك بتجربتنا الاشتراكية بحيث تبدو جوانب التأصيل والتطوير فى كل منهما . وفى المجتمع الإسلامى الأول سنستند إلى نصوص القرآن والسنة ومراجع فى التاريخ الإسلامى وفى تجربتنا الاشتراكية .

القسم الأول — جوانب الثبات فى الإسلام

الإيمان :

٢ — هناك أولا الإيمان بالله . وإسلام النفس إليه . والله تعالى يبين أن هذا هو المحور الرئيسى الذى تدور حوله الحياة والذى أمر الله به رسله والناس جميعاً . وفى أوائل سورة البقرة تطالعنا الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١). وبين أن هذا الإيمان كان دعوة
الأنبياء ووصيتهم إلى أبنائهم قولهم وهم يودعون الحياة ، والعقيدة التي
يتوارثونها . وفي هذا يقول الله تعالى عن آل إبراهيم : (وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ
أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ
إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَلَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اسْلِمْ قَالَ :
اسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ

قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ
وَالِلَّهِ آبَائُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ (١).

وبين الله تعالى أن الإيمان هو « مدار » النفس الانسانية ،
بحيث يضطرب سير الفرد والمجتمع إذا خرج عن هذا المدار . نجد
صورة لهذا في قوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ
سَحِيقٍ) (٢).

وأجمع آيات الوصايا في القرآن قول الله تعالى : (وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) (٣) .
وهذا الإيمان يشمل النبوات جميعاً ، ويبين هذا قوله تعالى :
(آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (٤) .

(١) سورة البقرة : ١٢٧ - ١٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) سورة النساء : ١٣١ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥ .

لعبادات :

٣ - الجانب الثانى الذى يثبت الإسلام هو العبادات . فهى محددة لا يملك أحد تغييراً لها ولا تبديلاً .

(أ) إقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها ، وتحديد هذه الأوقات وكيفية أدائها محددة . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضح : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . وإذا كانت صلاة المقيم الصحيح الجسم تسير على نظامها المعتاد ، فإن الله خفف عن المسافر وعن المحارب ، ويسرّ لهم فى عدد الركعات وفى جمع الصلوات المشتركة الوقت حتى إن المريض ليستطيع الصلاة بالإيماء وحركة الجفن . . كل هذه الجوانب جاءت بتفصيل دقيق لا يدع إلا مجالاً محدوداً جداً للرأى فى بعض التفاصيل .

(ب) مثل هذا يقال عن الصوم . فهو محدد بشهر رمضان :
(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ) (١) .

(ح) تأتى بعد هذا الزكاة ، ولها نصاب شرعى . وجانب من أمر المال حدده القرآن ، وجانب بينته السنة المطهرة ، وجانب ثالث ترك

لاجتهاد المسلمين ، وهذا الجانب سنعرض له في القسم الثاني من هذا البحث .

والقرآن الكريم لم يفرق بين الصلاة والزكاة : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) (١) .

والله أمر نبيه بأخذ الزكاة ممن تستحق عليهم وصرفها في مصارفها فقال : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً [وهى هنا الزكاة] تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) (٢) .

وبين مصارفها في قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (٣) .

وكانت أول حرب في الإسلام بين المسلمين والمرتدين على الزكاة ووجوب أدائها لبيت المال ليتولى إنفاقها في أبوابها . ووضح من الآية

(١) سورة المؤمنون : ١ - ٤ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٣) سورة التوبة : ٦٠ .

الكرامة حق الفقير والمسكين والغارم (المدين) وابن السبيل (المنقطع
عن أهله) في هذا المال فضلاً عن المصارف الأخرى كالدفاع عن
الوطن . وقد تكلم الصحابة مع أبي بكر في أن يترك قتال مانعي الزكاة
ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون ؟
فامتنع أبو بكر عن ذلك وأباه . وخاطبه عمر بن الخطاب قائلاً :
علامَ تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن
أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،
فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ فقال أبو بكر :
والله لو منعوني عناقاً (وفي رواية عقالا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . إن الزكاة حق المال ، والله
لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن
الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١) فكانت أول
حرب في الإسلام دفاعاً عن حق الفقير .

(د) فإذا جئنا إلى الحج بعد هذا وجدناه محدد الموسم والمناسك
أيضاً . والنبي يعلمنا فيقول : « خذوا عني مناسككم » ، ونحن
لا نستطيع أن نغير من نظام الطواف أو السعي أو الدفع إلى عرفات
والإفاضة منها إلى المشعر الحرام وذكر الله في أيام معدودات في منى
ثم العودة إلى مكة . . هذا مع تيسير وتخفيف عن المريض والضعيف .
والمفروض أولاً في الحج القدرة وهي الزاد والراحلة . . أي توافر المال

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٦ : ٣١١ إلى ص ٣٣٢ في بقية
حروب الردة . ومعنى عناق : الأنثى من ولد الماعز والغنم من حين الولادة إلى
تمام الحول . ومعنى عقال : حبل يربط به البعير ليبقى باركاً . . والمقصود من
قول أبي بكر لو منعوني حتى أقل الأشياء قيمة لقاتلتهم عليه .

ووسيلة المواصلات . وهذا — بداهة — بعد تواقر القدرة البدنية التي
تعيّنه على أداء الفريضة . والله يقول : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ
فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
فِي الْحَجِّ) (١).

وفي دراسة العبادات جانبان ، أولهما : الاتباع . فليس كل شيء
في العبادة يمكن أن يفسر على أساس عقلي بحث تبدو به كل نواحي
الحكمة فيه : لماذا في الصلاة ركعة وسجدة ؟ ما الحكمة في التيمم
وهو يحل محل الوضوء إذا تعذر الماء أو احتاج إليه الفرد في أمر حيوي ؟
لماذا الطواف والسعي سبعة أشواط ؟ لماذا الصوم في رمضان بالذات ؟
هذا الجانب التعبدى في الإسلام . وموقف المسلم فيه هو الاتباع
تصديقاً بأن هذا ما جاء به الدين .

وهناك جانب ثان تبدو به الحكم في هذه العبادات . وبعضها جاء
في القرآن والأحاديث والبعض من جهود العلماء . ومن نماذج ما جاء في
القرآن الكريم :

- (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (٢).
- (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ

بِهَا) (٣).

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٣) سورة التوبة : ١٠٣ .

• (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١).

• (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّسُولَ) (٢).

فهنا نجد الآيات الكريمة تربط بين العبادة ونتائجها في الفرد والمجتمع ، بدون الاكتفاء بالأصل التعبدى وحده .

الأخلاق :

٤ - والرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا هدفاً رئيسياً من أهداف الدعوة الإسلامية في قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، ويصفه ربه فيقول : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٣) ، ويؤكد الإسلام وجوب تمسك الفرد والجماعة بالخلق الكريم في مجالات الحياة على تنوعها ، ولنذكر نماذج من ذلك :

(١) هناك أولاً معاملة الفرد لنفسه . . فما عنده من قوى ومواهب

(١) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ - ٢٨ .

(٣) سورة ن : ٤ .

وحواس هي في أساسها ملك لله تعالى . والله سائله عما فعل بها . ويمدح الرسول هذا الخلق في قوله : « طوبى لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سيرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » (١) .

(ب) فهذا الخلق الفاضل ليس أمراً انطوائياً في حياة الفرد ، وإنما يمتد ليشمل دوائر متتابعة الاتساع في حياته ، وأقربها إليه دائرة الأسرة بادية بالأم فالأب والإخوة . وسئل الرسول في هذا فقال : « أمك وأباك وأختك وأخاك وولاك الذي يلي ذلك حقاً واجباً ورحماً موصولة » أخرجه أبو داود . وفي حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (٢) ، أخرجه الترمذى .

(ج) وتتسع الدائرة لتشمل اليتيم . وأخرج البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما » (٣) .

(د) وتتسع الدائرة بعد هذا لتشمل أية خدمة عامة أو خاصة ، وفي هذا يقول الرسول ناصحاً بعض الصحابة عندما سأله عن شيء ينفعه : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » (٤) وقوله : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل » (٥) .

(هـ) ولا يقتصر البر على الإنفاق المالى فقط ، وإنما يشمل الكمة

(١) أحمد زكى صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٢ - ٥٣ .

(٢) ابن الديبع الشيبانى : تيسير الوصول ١ : ٤٩ - ٥٠ - ويجمع

هذا المرجع الأحاديث على أساس موضوعى ، والموضوعات مرتبة على حروف المعجم . ويجمع أحاديث الأصول الستة المشهورة (صحيحى البخارى ومسلم وموطأ الإمام مالك ومسنند أبى داود وجامع الترمذى ومسنند النسائى) رحمهم الله .

(٣) إلى (٥) المرجع السابق .

الطيبة والبسمة والمجاملة ، ويجمع هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (١)

(و) بل إن هذا البر ليمتد للحيوان الأعجم ، وفي هذا يقول الرسول
(صلى الله عليه وسلم) : « إن لكم في كل ذات كبد رطبة أجراً » .

(ز) وهذا الخلق غير مقيد بأرض الإسلام ، ولكننا نراه حتى في
الحرب ولقاء العدو . ويروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ولا تغلوا
(الغلول حجز جزء من الغنيمة) وضموها غنائمكم (أى اجمعوها)
وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، وفي حديث آخر : « لا تغدروا
ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » (٢) .

والمطلوب في المجتمع الإسلامى التمسك بكل من القانونين الأخلاقى
والعلمى ، والمقصود بالقانون العلمى هنا اتخاذ الوسائل الموضوعية السليمة
المؤدية إلى رقى المجتمع فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلم جميعاً . .
وبالقانون الأخلاقى أن يكون التعامل فى المجتمع على أساس من الأخلاق
التي حدد الإسلام معالمها الرئيسية وأتم بها مكارم الأخلاق التي جاءت
فى الأديان السابقة وأعطانا نماذج من تطبيقاتها العملية . وأى قانون وحده
منهما لا يكفي . .

لا يكفي أن يتوافر فى الأفراد والمجتمع حسن الأخلاق ، مع مستوى
علمى منخفض أو فى قاعدة اقتصادية هزيلة ، أو استعمار . .
ولا يكفي من ناحية أخرى أن يأخذ المجتمع بأسباب التقدم العلمى
والاقتصادى والسياسى ولا يبالى بعد هذا بمستواه الأخلاقى . ولا شك

(١) المرجع السابق .

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار ٧ : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

في أن هناك تفاعلا بين الجانبين ، ولكن الأساس في الإسلام أن يكون القانونان : العلمى والأخلاقي الجناحين اللذين يخلق بهما المجتمع في آفاق التقدم .

الأحكام :

٥ - يحتوى القرآن من آيات الأحكام على خمسمائة أو تزيد قليلا ، على حسب الاختلاف عند من يجعل بعض آياته آيتين ، بدون خلاف في الآية نفسها ، بعضها يتعلق بالعبادة ، وأكثرها يتعلق بالمعاملات المالية وسواها من قضاء وسياسة ونظام للحياة المدنية ، وفيها من الاختصار البلاغى ومن الشمول نعمتان من نعم الله .. فهما اتسعت آيات التشريع لكل زمان ومكان تعيشه الإنسانية ^(١) ، وسنعود إلى هذا بشيء من التفصيل في الجزء المتطور . وإنما الذى نؤكد هنا أن آيات الحدود والمواريث ، والمبادئ العامة فى الحكم والاقتصاد والسياسة الدولية والحرب هى من الآيات الموضحة للجوانب الثابتة فى المجتمع الإسلامى . ولا يملك مسلم رفض نص صريح فيها . وقول الله واضح فى هذا :

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ^(٢) .

(١) عبد الحليم الجندى : توحيد الأمة العربية ص ٤٣ .

(٢) سورة الشورى : ١٥

وقوله تعالى : (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (١).

ثانياً – جوانب التطور في الإسلام

كلمة عن مصادر التشريع :

٦ – وقبل أن نبدأ في دراسة التطور يحسن أن نذكر كلمة موجزة عن مصادر التشريع الإسلامي وعلاقة المسلمين بها في واقعهم التاريخي (٢) :

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته مرجع المسلمين في تدبير شئونهم العامة : من تشريع وقضاء وتنفيذ . وكان قانونه في هذا التدبير ما ينزل عليه من ربه ، وما يهديه إليه اجتهاده ونظره في المصالح ، وما يشير به أولو الرأي من صحابته فيما ليس فيه تنزيل . وكان التدبير بهذه المصادر يتسع لحاجات الأمة ويكفل تحقيق مصالحها .

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته هاديين لا يضل من اهتدى بهما في تدبير شئونها وهما : كتاب الله وسنة رسوله . وأقام مناراً ثالثاً يستضاء به – فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة – وهو الاجتهاد الذي مهد طريقه ، ودعا إليه بقوله وعمله وإقراره . ذلك لأنه

(١) سورة المائدة : ٤٩ .

(٢) الفقرات من ٦ إلى ٩ تعتمد اعتماداً رئيسياً على الفصل التمهيدى الذى كتبه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية فى السنون الدستورية والخارجية والمالية » ص ٦ – ١٣ .

صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يبلغ الأحكام مقرونة بعلاها والمصالح التي تقتضيها ، وفي هذا إيدان بارتباط الأحكام بالمصالح ، ولفت إلى أن الغاية إنما هي : جلب المنافع ودرء المفاسد . وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهاد من اجتهد في حضرته من صحابته وقال للمجتهد : إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر . وكان ينهى عن الشيء لمصلحة تقضى بتحريمه ثم يبيحه إذا تبدلت الحال وصارت المصلحة في إباحته . ولما خرج صحابييان في سفر وحضرتهما الصلاة وليس معهما ماء وصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، وأعاد أحدهما ولم يعد الآخر صوبهما الذي صلى الله عليه وسلم وقال للذي لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » . هذا كله وكثير مثله بث في نفوس المسلمين أن غاية الشرع إنما هي المصلحة ، وحيث وجدت المصلحة فثم شرع الله . وأنار لهم أن السبيل إلى تحقيق المصالح حيث لا نص إنما هو اجتهاد الرأي .

في عهد الخلفاء الراشدين :

٧- وظهت هذه الروح فيما سلكه الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في تدبير الشئون العامة للدولة ، فكانوا يهتدون في نظمهم وسائر تصرفاتهم بما شرع الله في كتابه ، وعلى لسان رسوله . وإن حدث لهم ما ليس له حكم في كتاب ولا سنة اجتهدوا رأيهم ، واتبعوا ما أدى إليه اجتهادهم مما رأوا فيه مصلحة الأمة ولا يخالف روح الدين . وكثيراً ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه ، بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص . وما أنهم مجتهد منهم أنه على غير الحق ، مادامت الغاية : المصلحة وعدل الله ، والوسيلة : اجتهاد الرأي وإنعام النظر .

وقد اجتهد أبو بكر فاستخلف على المسلمين عمر ، واجتهد عمر فلم يستخلف واحداً ، وترك الأمر شورى بين ستة . فاجتهاد أحدهما غير

اجتهاد صاحبه . واجتهادهما معاً غير ما فعل الرسول لأنه لم يستخلف واحداً كما فعل أبو بكر ، ولم يترك الأمر شورى لسته كما فعل عمر . وما رى واحد منهما بأنه يخالف شرع الله لأنه توخى المصلحة واجتهد ما استطاع .

واجتهد عثمان وجمع الناس على قراءة القرآن بحرف واحد هو ما دوّن في المصحف الإمام ، ولم يكن ليخفى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . ولكنه خشي فتنة الخلف بعد اتساع أرض الإسلام وتفرق الحفاظ في الأمصار واستشهادهم في الجهاد فمنع ما كان مباحاً .

واجتهد عليّ فعاقب الرافضة بالتحريق عندما رأى المصلحة في الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشنيع .

وكذلك كان الشأن في القضاء وطرق الحكم . . وكانوا ينظرون في التنفيذ إلى ما تقضى به المصلحة وحال الناس . فقد عطل عمر تنفيذ حد السارق في عام المجاعة ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم لما أعز الله الإسلام . وهذه السبل التي سلكها المسلمون أول أمرهم في التشريع والقضاء والتنفيذ ، كانت السبل القويمة في تدبير شئون المجتمع ، وكانت لا تضيق بحادثة أو حاجة ، ولا تقصر عن تحقيق أية مصلحة ، ولا عن مسايرة الزمن في تطوره ، وبسلوكها ما شعر واحد بقصور الإسلام عن مصالح الناس ، وكانت الأحكام جميعاً مصدرها القرآن والسنة وما اهتدى إليه أولو الرأي متحررين المصلحة ، والله ما شرع الشرائع إلا لمصلحة عباده .

وضع قواعد الاجتهاد :

٨ — وجاء بعد هذا عصر التزم فيه مجتهدو الفقهاء طرقاً خاصة في الاجتهاد . وسواء أكان الباعث لهم على هذا زيادة حرصهم على ألا

يتعدوا شرع الله أم اتهامهم عقولهم بالقصور عن السابقين أم غير ذلك ، فإن هذا الالتزام قيد من حرية المجتهد وضيق دائرة الاجتهاد وقضى بإغفال كثير من المصالح المرسله : وهى التى لم يرد فى الشرع دليل بشأنها ، ولم يشهد الشارع باعتبارها ولا بإلغائها . وبعد أن كان مجتهدو الصحابة يعملون لمطلق المصلحة لا لقيام شاهد بالاعتبار ، وهاديهم فى هذا فطرة سليمة ونظر صحيح ، صار الاعتبار لمصالح خاصة والمرجع إلى قواعد موضوعة . وبهذا بدأت تضيق دائرة التشريع وتلتزم طرقاً خاصة للوصول إلى الحق ، وتغل اليد عن تنفيذ ما قد يكون فيه بعض الإصلاح .

٩ - وكان هؤلاء المجتهدون يشعرون فى بعض الأحوال بخرج هذه القيود ، فكانوا يخرجون من هذا الضيق بما يدعو به الاستحسان ، وهو بقية من روح الاجتهاد القطرى الذى كان سبيل السلف الأول .

تخلف التشريع :

١٠ - وبإغفال المصالح المرسله فى التشريع وإلغاء اعتبار القرائن والأمارات فى القضاء ، والتزام طرائق خاصة للوصول إلى الحق وتنفيذه ، ظهر الفقه الإسلامى بمظهر القاصر عن التشريع ، الذى لا يتسع لمصالح الناس ، ولا يساير الزمن وتطوراته ، وأخذ الولاة ينظرون إلى مصالح الناس المطلقة ويدبرونها غير ملتزمين بما التزمه هؤلاء المجتهدون . وبدأت المجتمعات الإسلامية ترى نوعين من النظم والأحكام : أحدهما «ما استنبطه الفقهاء المجتهدون على وفق أصولهم وقيودهم ، وثانيهما ما لحأ إليه الساسة الولاة لتحقيق المصالح المطلقة . وكان هذا النوع الثانى يتبع حال واضعيه : فتارة يكون معتدلاً غير متجاوز حدود الدين وأصوله العامة ، وتارة يكون مراعى فيه الأغراض والمصالح الجزئية . .

ثم زاد قصور الفقه الإسلامى عن مصالح الناس بإغلاق باب

الاجتهاد واقتصار الفقهاء على حمل الناس أن يتبعوا ما استنبطه أئمتهم في عصورهم السالفة بدون نظر إلى ما بين الأزمان والأحوال من تفاوت . فاتسعت دائرة الخلف بين الفقه ومصالح الناس في كثير من الشئون . واتجه ولاية الأمر في المجتمعات الإسلامية إلى مراعاة المصالح أو البعد عنها وفق ما تمليه عليهم مواقفهم من عدل أو جور . . بدون تقييد بأقوال الفقهاء المتبوعين . .

بين الاجتهاد والسياسة :

١١ - اعتمدنا في الفقرات (من ٦ إلى ٩) اعتماداً رئيسياً على التمهيد الذي قدم به المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف كتابه (السياسة الشرعية) . وهناك نقطة لها خطورتها أشار إليها المرحوم السيد محمد رشيد رضا في كتابه « يسر الإسلام » عند دراسته قاعدة « دفع المفسد وحفظ المصالح » وكيف أن جماعة الفقهاء يصرحون دائماً بإرجاع جميع الأحكام إليها . .

يقول السيد رشيد رضا : « إنما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبارهم كلهم له - كما قال الإمام القرافي - خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وإرضاء استبدادهم في أموال الناس ودمائهم ، فأروا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى النصوص ولو بضرب من الأقيسية الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسائل العلة في القياس ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والحكام ، وهذا الخوف في محله ، ولكن لم يبق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغي ، إذ كان يوجد في عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهّد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى » ^(١)

(١) السيد محمد رشيد رضا : يسر الإسلام وأصول التشريع العام

وواضح من كلام السيد رشيد رضا أن شدة تمسك كثير من الفقهاء في عهود الظلم بالنصوص وتضييق المجال أمام الاجتهاد — لم يكن مرجعه ضعفاً فقهياً فيهم ، ولا عجزاً عن الاجتهاد ، ولكن وجودهم في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية يسيطر فيهاحكام ظالمون . . فاو فتح الفقهاء باب الاجتهاد والتوسع في قاعدة « دفع المفسد وحفظ المصالح » لاتخاذها الظالمون طريقاً إلى إلباس مظالمهم لباساً شرعياً . .

١٢ — ويعقب السيد رشيد على دراسته لأصل « دفع المفسد وحفظ المصالح » بعرض ما يراه الطريقة المثلى للتعاون بين الحكم والدين فيقول : « والطريقة المثلى لحفظ الحق وإقامة ميزان العدل ، هي رفع قواعد الحكم على الأساس الذي شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله : (وأمرهم شورى بينهم) . وقوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) . لا بإنكار أصل المصالح ولا بالتضييق في تفريع الأحكام عليها . فإن نيط ذلك بأولى الأمر (أى أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الإمام (الخليفة) ويكونون أهل الشورى له ، ويكون هو مقيداً بما يقرونه — فحينئذ لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفساد ، ما يخشى منه في حال إقرار كل متغلب على الحكم ، مع التضييق في مسالك استنباط الأحكام الذي جرى عليه جماهير الفقهاء . وإنما مثار المفساد كلها أن يوسد الأمر إلى غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ، ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذي أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم » (١)

الإجماع ونسخه بإجماع ثان :

١٣ - وقد درس المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (١) جوانب الإجماع ، وبين أنه من المتعذر عملياً اتفاق جميع مجتهدي الأمة في عصر على رأى واحد « نظراً لأن المسألة أو المسائل التي تعرض عليهم هي من ذات البحث والنظر ، والسنة البشرية تقضى في مثلها باختلاف الرأى ، لمكانة التفاوت بين الناظرين في قوى الإدراك ووسائل البحث التي منها اختلاف ظروف الأقاليم التي تحيط بكل باحث . ويمكن حينئذ قبول الإجماع على أنه « عدم العلم بالمخالف » أو « اتفاق الكثرة » وكلاهما يصلح أن يكون أساساً للتشريع العام الملزم في المسائل ذات النظر والبحث ، إذ هو غاية ما في الوسع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ولكن يشترط في اعتباره على وجه عام : أن تكون حرية رأى الباحثين مكفولة وألا يتصل بها مظهر من مظاهر الضغط التي قد يكبل به السلطان حرية الرأى » .

ويعقب على هذا بقوله : « وإذا كان من أسس الإجماع اتفاق النظر في تقدير المصلحة - وهي مما يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال - فإنه يجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن يأتي بعدهم إذا تلك تغيرت ظروف الإجماع الأول ، أن يعيدوا النظر في المسألة على ضوء الظروف الجديدة ، وأنه يقرروا ما يحقق المصلحة التي تقتضيها الظروف ، ويكون الاتفاق الثانى إجماعاً منهاً لآثر الإجماع الأول ، ويصيرها هو الحجة التي يجب اتباعها ، وإذا وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

« هذا هو الاجتهاد الجماعى ، أما الاجتهاد الفردى فإنه لا يكون حجة ملزمة إلا لصاحبه » .

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٥٦٦ - ٥٦٧ .

اتجاهات جديدة لأوضاع جديدة :

١٤ - وإذا ما انتقلنا من النظرية إلى التطبيق وجدنا أن مجتمعاتنا الإسلامية في حاجة إلى مراجعة شاملة لما بقى فيها من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي ورثناها من عهود الاستعمار . ولا بد من ثورة تشريعية تصاحب الثورة الاقتصادية والاجتماعية ونظم الحكم الجديدة . . وثورة علمية في مجالات العلم جميعاً حتى تستطيع أن تسير وتقود التطور . .

ومن هنا جاءت عناية مجتمعنا بالدراسات الإسلامية وتطويرها ، وفتح المجال أمام علماء العالم الإسلامي للقاءات يتدارسون فيها المشكلات التي تقابل الشعوب الإسلامية في زحفها إلى حياة أفضل .

وشاهدنا تطوير الأزهر وربطه بواقع الحياة ، وفتح المجال أمام أبنائه ليتخصصوا في أكثر من علم : طب ، هندسة ، اقتصاد ، سياسة إلخ . . هذا إلى جانب الدراسات الأصيلة في الأزهر كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة . وقد بينت المذكرة الإيضاحية لمشروع قانون تنظيم الأزهر^(١) دوره في تاريخ العلم والإسلام وتأثيره في إفريقيا وآسيا بخاصة ، « والتزام الأزهر قروناً طويلة الوقوف في وجه كل محاولات العدوان مما ألزمه نوعاً من المحافظة ، لعلها كانت بعض الموقف الدفاعي الذي التزمه خلال تلك القرون ، فلما نشطت الحياة حواليه وزالت الأسباب التي كانت تضطره إلى المحافظة والتزمت ، لم يجد الوسيلة الملائمة التي تعينه على الحركة المتجددة التي تلائم بينه وبين عصره ، مع احتفاظه بخصائصه وقيامه بواجبه لحياة الدين والمحافظة على تراث الإسلام » .

(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٥٠٤ - ٥١٤ .

« وكانت الثقافة الاستعمارية تحاول طوال السنين التي يسيطر فيها الاستعمار على العالم الإسلامى أن تلون أفكار أهله وعقائدهم ، وأن تضع فى نفوسهم موازين جديدة وقيماً جديدة يمكن أن تباعد بينهم وبين الإسلام . ولولا طبيعة المقاومة فى نفوس المسلمين لسحقهم المحاولات المتوالية وأخرجتهم عن دينهم ، ولعلها بلغت من ذلك مبلغاً ما حين أوقعت فى أذهان كثير منهم أن الإسلام عبادة وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض مع الدين . »

وبينت المذكورة إجماع أهل الغيرة كلهم من البلاد الإسلامية كلها على رأى واحد هو أن يعرف عالم الدين علوماً أخرى يعيش بها ويشارك بها فى النهضة ليرتفع مقام الدين عن أن يكون سبباً للتعطيل والضياع فى المجتمع ، وسبيل ذلك أن تتطور معاهد الدراسات الإسلامية العالمية بحيث تقابل احتياجات النهضة ، فلا تقتصر على الدراسات الدينية وحدها ، بل يجب أن تجمع إليها علوماً أخرى تتحقق بها لكل خريج الخبرة والمعرفة وسلامة العقيدة ، ليعود هؤلاء الحريجون (الوافدون بخاصة من الأقطار الإسلامية) إلى مراكز القيادة فى كل مجالات النشاط فى العالم الإسلامى المتحرر . .

ذلك لأن كثيراً من الأقطار الإسلامية لاحظت فى بعثاتها أن المبعوثين يعودون وهم أحد رجلين : إما متخصص فى علوم حديثة لا يعرف شيئاً من أمر الدين ، وإما متخصص فى الدين لا يعرف شيئاً من أمر العلوم الحديثة غير قادر على المشاركة فى ألوان النهضة .

ومن أجل ذلك جميعه كان لابد من تجديد الأزهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره ، مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته التى استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخواننا فى شرق الأرض وغربها أكثر من ألف سنة .

مجمع البحوث الإسلامية :

١٥ - وجاء نظام مجمع البحوث الإسلامية بحيث يكون « هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ، ويقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالد ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة ، وبيان الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجعل من مهمة المجمع كذلك أن يتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث الأجانب ودراساتهم للانتفاع بما فيها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرأى . . »

وقد عقد المجلس مؤتمره الأول في مارس ١٩٦٤ (١) وحضره ممثلو أربعين دولة . وكان للبحوث الاقتصادية فيه أوفر نصيب : بحثت فيه الملكية الفردية وتحديداتها وماكية الأرض والموارد المالية وحق الفقراء في أموال الأغنياء ونظام الحسبة ، إلى جانب دراسات عن الاجتهاد ماضيه وحاضره والتلفيق (الجمع) بين أقوال المذاهب . . وفلسفة الحرية في الإسلام وعوامل انتشار الإسلام . .

ولإذا رجعنا إلى قراراته وجدنا من بينها ما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية منها « ويقرر المؤتمر بعد الدراسة المستفيضة لموضوع الملكية أن حق التملك والملكية الخاصة من الحقوق التي قررتا الشريعة وكفلت حمايتها ، كما قررت ما يجب في الأموال الخاصة من الحقوق المختلفة . وأن من حق أولياء الأمر في كل بلد أن يحددوا من حرية

(١) الأزهر - مجمع البحوث الإسلامية : المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية . شوال ١٣٨٣ هـ - مارس ١٩٦٤ م .

التملك بالقدر الذى يكفل درء المفسد البينة وتحقيق المصالح الراجعة .
 وأن أموال الظلم وسائر الأموال الخبيثة والأموال التى تمكنت فيها الشبهة
 — على من هى فى أيديهم أن يردوها إلى أهلها أو يدفعوها إلى الدولة ،
 فإن لم يفعلوا صادرها أولياء الأمر ليجعلوها فى مواضعها . وأن لأولياء
 الأمر أن يفرضوا من الضرائب على الأموال الخاصة ما ينى بتحقيق
 المصالح العامة . وأن المال الطيب الذى أدى ما عليه من الحقوق
 المشروعة ، إذا احتاجت المصلحة العامة إلى شيء منه أخذ من صاحبه
 نظير قيمته يوم أخذه ، وأن تقرير المصلحة وما تقتضيه هو من حق
 أولياء الأمر . وعلى المسلمين أن يسدوا لهم النصيحة إن رأوا فى تقديرهم
 غير ما يرون « (١) » .

كما أشارت قرارات المؤتمر إلى الاستعمار والصهيونية ، وبينت أن
 الاستعمار وأعوانه هما الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفراداً
 وجماعات ودولاً أن يجاهدوا بالمقاومة الجادة المستمرة حتى يتم تحرير
 المسلم قلباً وضميراً ووطناً ومعرفة . وأن كل تقصير فى مقاومة ذلك
 العدو هو عصيان لله تعالى وإثم كبير ، لأنه يقوى يد العدو على إنزال
 الأذى بالملايين من المسلمين . وأن الصهيونية التى يحاول الاستعمار بعد
 أن تحطمت أسبابه الظاهرة أن يغلف بها أهدافه تحت ستار جديد هى
 داء استعماري خبيث ، ومجاهدتها فرض على كل مسلم ، والتخلف
 عن ذلك عصيان لله تعالى وإثم كبير .

وفما يتعلق بالتطور قرر المؤتمر « أن الكتاب الكريم والسنة النبوية
 هما المصدران الأساسيان للأحكام الشرعية . وأن الاجتهاد لاستنباط
 الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة وكان
 اجتهاده فى محل الاجتهاد » .

« وأن السبيل لمراعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة هي أن يتخذ من أحكام المذاهب الفقهية ما ينفي بذلك ، فإن لم يكن في أحكامها ما ينفي فبالاجتهاد الجماعي المذهبي ، فإن لم يف كان الاجتهاد الجماعي المطلق . وينظم المؤتمر وسائل الوصول إلى الاجتهاد الجماعي بنوعيه (أى المذهبي والمطلق) ليؤخذ به عند الحاجة »

وتوالى لقاءات النجمع مستجيبة لحاجتنا المتجددة :

استعادة أرضنا السليبية ومسجدنا الأقصى الأسير وحقوق شعب فلسطين . رعاية شبابنا . بناء مجتمعنا على العلم والإيمان .
وتواكبت هذه الجهود مع جهود على الصعيد الإسلامى نرجو أن تكون — بتعاونها — أقدر على الوفاء بالمأمول منها .

والخلاصة

١ — أن المسائل الدينية المحضة وهي العقائد والعبادات والحظر والإباحة تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول أو العمل أو التقرير . ولا يجوز إحداث عبادة جديدة أو إتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وجمهور أصحابه لأن الله أكمل للدين أصوله وفروعه بكتابه وبيان رسوله .

٢ — أما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة واقتصاد وآداب :

(١) فما كان فيه نص محكم قطعى فالواجب أن يعمل به ولا مجال للاجتهاد فيه ، ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة : كتنفى الحرج ونفى الضرر والضرار وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) . ويلحق

بهذا القسم ما يدل عليه نص صحيح وأجمع عليه الصدر الأول أو عمل به جمهورهم .

(ب) ما ورد فيه نص غير قاطع الدلالة ، ففيه مجال للاجتهاد ، ومثله يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة في كل زمان . وما يتعلق بالأمور العامة كالأحكام القضائية ونظام الحكم والاقتصاد فرده إلى أولى الأمر يتشاورون فيه وينفذونه بعد المشورة .

(ج) ما ورد فيه نص غير تكليفي كالأحاديث المتعلقة بالعادات والطعام والشراب والطب ونحو ذلك . . فهذا يسميه العلماء إرشاداً لا تشريعاً وكذلك الفتاوى الشخصية ، فالأفضل العمل به ما لم يمنع من ذلك مانع من شرع أو مصلحة عامة أو خاصة .

(د) ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه فعل أو ترك فهو الذي عفا الله عنه رحمة وتخفيفاً^(١) ، فإن كان من أمر الدين المحض فهو بين العبد وربه ، وإن كان من أمر المجتمع (اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً . .) فرده إلى أولى الأمر وفق الشروط التي سبق عرضها في الاجتهاد .

(١) هناك تلخيص لقضية التطور تستطيع الرجوع إليه في خاتمة كتاب يسر الإسلام لرشيد رضا ص ٥ - ٧٩ . وفي مصادر الشريعة يمكن الرجوع إلى محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة من ص ٤٨٩ - ٥٧١ . وفي أعمال مجمع البحوث الإسلامية مادة علمية قيمة لا يستغنى عنها في دراسة مشكلات تطور المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ، وبخاصة في قضايا التطور الاقتصادي ، وبها عنيت الدورة الثانية سنة ١٩٦٥ والثالثة عام ١٩٦٦ ، وتتابعت دوراته حتى السابعة عند كتابة هذه السطور في شعبان ١٣٩٢ (سبتمبر ١٩٧٢)

٣- أن تطورنا الاجتماعي فتح أمام الدراسات والبحوث الإسلامية أبواباً جديدة وأقام المعابر بين الدراسات الإسلامية والمجتمع بحيث يمكن بالجهود المشتركة أن تزول الحفوة المفتعلة التي حاول الاستعمار أن يوجدها بين الدين والحياة .

الفصل السابع

المسجد... فتن مؤمن

لقاء بين الدين والحياة :

كثيراً ما يقترن في ذهني مشهذان :

الأول : مشهد الحجيج في عرفات وقد امتدت أيديهم إلى الله بالدعاء .

والثاني : مشهد القاهرة وقد امتدت مآذنها ليتردد من فوقها نداء الوحدة والتوحيد .

وإذا ما سرت في طرقات القاهرة فأنت تسير في رحلة مع التاريخ والإيمان ، وأنت واجد في أطرافها وقلبها سجلاً مفتوحاً أمامك :

أهرامات من مصر القديمة شادها العلم والإيمان . مقابر منحوتة في الصخر عليها مشاهد الحساب والجزاء والدار الآخرة . كنائس أوى إليها الإيمان وارتفع منها نداء السلام . مآذن سامقة تؤلف مع هذا كله نشيداً كبيراً عنوانه « مصر المؤمنة » .

في زيارتك لمتاحفها التاريخية الكبرى : مصرية قديمة وقبطية وإسلامية ، ترى صوراً من التلاقى بين الدنيا والآخرة ، بين العلم والإيمان ، بين المجتمع والدين . هذا اللقاء الذي ينبع من الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فأصبحنا في منطق الإيمان لا نفصل بين عمل الدنيا والآخرة ، فالصلاة لها مضمونها الاجتماعي ، وللعمل الاجتماعي مستواه الديني من الإخلاص وصدق التوجه إلى الله .

محاربون عابدون :

وإذا كان هذا اللقاء بين الدين والحياة خطاً مستمراً في الوجود المصير المتدفق منذ فجر تاريخه ، استمرار النيل نفسه ، فإن هذا الخط يزداد

وضوحاً وقوة وترتفع نبرته إذا ما كان الوجود المصرى مهدداً بخطر :
 هنا يحس المصرى حاجته العميقة إلى العلم والإيمان ، يعبر عنهما
 بجيش يحمى أرض الوطن ومنجزاته ، وإلى عقيدة عميقة تحمى روحه .

وإذا عدنا إلى تاريخنا وجدنا هذا الترابط بين إنشاء المعابد الكبرى
 وخوض المعارك الكبرى دفاعاً عن الحياة وكرامة الحياة :

فى مصر القديمة عندما غزا الهكسوس مصر وتراجعت العاصمة إلى
 ثنية قنا عبر المصرى عن عقيدته بمعابد ضخمة تصور مشاهد الحياة
 الدنيا والآخرة فى نسق متصل . وتستطيع أن تراها - أوضح ما تراها -
 فى معابد الكرنك ووادى الملوك وما وراء ذلك جنوباً حتى أبو سمبل ،
 والآثار متصلة بعد هذا إلى قلب إفريقيا وإن بعد بنا تتبعها عن مسار
 الحديث الذى نحن بسبيله ، وقد نعود إليه فى حديث لاحق .

وعندما دخلت المسيحية مصر ، تبلور الدفاع عن الوجود المصرى فى
 الدفاع عن العقيدة المسيحية ، وشدد الرومان النكير على من يقولون بالعقيدة
 المونوفيزية وتوحد اللاهوت والناسوت . ورفض المصريون التدخل الرومانى
 فى عقيدتهم ، وبرز هذا الرفض صبراً واستشهاداً وأديرة تحتوى بها العقيدة
 وتنطلق منها مقاومة الاضطهاد .

وعندما جاء الإسلام مصر ليحررها من الطغيان الرومانى فتح الباب
 رحباً أمام السماحة الدينية والإخاء الشامل . ونستطيع أن نربط تاريخياً بين
 الضغوط التى تعرضت لها بلادنا فى غارات الصليبيين والتتار ، وبين مجموعة
 المساجد الكبرى التى تركها لنا العهد الأيوبى ، والعهد المملوكى : مساجد
 ارتبطت بمعركة المصير وقتئذ . وكانت بما فيها من فن وشموخ تعبيراً
 صامداً عن شعب صامد يحارب بيد ويبنى بيد .



مسجد قایتبای

في مجتمعنا المعاصر :

وأنت واجد هذه الظاهرة في مجتمعنا المعاصر .
 فبعد هزيمة يونية (حزيران) ١٩٦٧ اتجهت عنايتنا إلى إعادة بناء
 قواتنا المسلحة ودعم القاعدة الشعبية الاقتصادية التي تستطيع أن تمد الجبهة
 بالرجال والسلاح .
 وفي الوقت نفسه ترى تسابقاً إلى بناء المساجد بالحلول الذاتية في سرعة
 وفاعلية تفوق الجهود الحكومية نفسها .
 وإذا كان عدد المساجد في جمهوريتنا الآن يقرب من عشرين ألفاً ،
 فإن أقل من أربعة آلاف منها تتبع وزارة الأوقاف تبعية مباشرة . والنسبة
 بهذا ١ : ٤ .

والتمييز بين مساجد الوزارة والمساجد الأهلية باعتبارها حلولاً ذاتية ،
 لا مجال له ، لأن وزارة الأوقاف لا تزيد عن كونها « حلاً ذاتياً » :
 ففي النظام الحكومي لأية دولة ، لا بد من قيام وزارة للداخلية
 والخارجية والخزانة . . ولكن لا يمكن أن تقوم وزارة للأوقاف إلا إذا أوقف
 أهل الخير من أموالهم - جيلاً بعد جيل - ما تجد الدولة نفسها أمام
 مسئولية تنظيمه وإيجاد كيان إداري مسئول عنه .

لماذا المساجد ؟

وكنت أسمع من بعض الأصدقاء تعليقات :
 - لماذا لا تنفق هذه الأموال على أمر غير بناء المساجد ؟ والدين
 يسر ، ويمكن أن يصل الإنسان في أي مكان ؟
 وعندما عدت إلى تاريخنا أسائله في عصوره الفرعونية والمسيحية
 والإسلامية وجدت هذا الترابط بين بناء القوات المسلحة وبناء دور العبادة .

ترابطاً أشرت إلى بعض مشاهدته في صدر هذا الحديث .

والمسجد من حيث وظيفته « جامع » . .

ولم يعرف الإسلام المسجد الوحيد الوظيفة إلا في عهد ضعفه . . في حين أنه في عهود ازدهار الإسلام كان المسجد « جامعاً » لعدة وظائف : كانت فيه وإلى جواره المدارس ومساكن طلاب العلم والأساتذة والمستشفيات والرعاية الاجتماعية وسبل المياه ومكاتب حفظ القرآن الكريم . ولعل من أبرز النماذج بين أيدينا الجامع الأزهر ومجموعة قلاوون ومسجد السلطان حسن وبرقوق .

تأملات في المسجد :

وكنت وما زلت أحب الاعتكاف وحيداً في بيوت الله بعض الوقت ، أو أدير حواراً فيه مع صديق ، اقرأ معه المسجد كأنه كتاب مفتوح . وزاد هذا الإحساس في نفسي بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

وكنت أحاول أن أتلمس مظاهر هذا الترابط بين المسجد كهندسة معمارية ، والإقبال على بنائه ، والعمل من أجل معركة المصير بما تحتاج إليه من قيم وأخلاقيات .

وأنت إذا تأملت المسجد وجدته جهداً مشترك فيه عدد ضخم من الفنانين الذين يعملون بمواد متعددة : الحجر ، الرخام ، الحديد ، النحاس ، الخشب ، الجص ، ويستخدمون مجموعة كبيرة من الألوان ، ويعالجون ذلك كله بآلات متعددة ، ليكون المسجد بعد هذا وحدة فنية متكاملة تعبر بصور متعددة عن العقيدة الواحدة . ولتأخذ نماذج من ذلك :

المثدنة :

إذا ما نظرت إلى المثدنة . . . ولتكن مثدنة مسجد قايتباى ، فستقف فيها عند عدة ملاحظات :

١ - أنها أولا نابعة من بناء المسجد نبعاً عضوياً كأنها ذراع ممتدة داعية ، أو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

٢ - وهى تبدأ بقاعدة مربعة ، تربيع المسجد نفسه ، وتتحول القاعدة فى تدرج إلى مثنى فىلى دائرة . وفوق هذا تتحول الدائرة إلى أعمدة . . . أعمدة رشيقة يخالط البناء فيها الفضاء . وفوقها خوذة المثدنة كأنها كرة طائرة مرفوعة على عمد . وينتهى هذا بهلال صغير هو رمز السماء كأنه معلق فيها .

٣ - هذا الانتقال من حجم المسجد الراسخ ، إلى تدرج المثدنة ، يسحب نظرك فى رفق من الأرض إلى السماء . من المادة إلى الروح . من كثافة الأرض إلى رقة السماء وشفافيتها . ويرتبط به تقسيم المثدنة نفسها . إنه تقسيم متدرج تأخذ الأطوال فيه فى الصغر كلما اقتربت من قمة المثدنة . ولو كان تقسيم الأجزاء متساوياً لكانت حركة العين صاعدة هابطة فيه . ولكن التقسيم المتدرج يسحب النظر من أطول الأجزاء إلى أقصرها . . من الأرض إلى السماء .

٤ - ويرتبط هذا أيضاً بحجوم الأجزاء وأبعادها . المربع الأدنى للمثدنة هو أكبر الأجزاء قطراً . ويليه المثنى ثم الدائرة ثم الأعمدة ثم الخوذة والهلال . كل هذا التناغم يستهدف أمراً أساسياً : أن يحرك عينيك من الأرض إلى السماء فى رفق . وكأن الأعمدة فى أعلى المثدنة أصابع يد داعية متجهة إلى الله تبارك وتعالى .

هل هذه المثدنة هى صورة رمزية للبد الداعية ؟



مئذنة وقبة مدرسة الأشرفية

وهل ارتباطها بالمسجد هو ارتباط اليد بالجسم ؟
 وهل تقسيمها هو « المفاصل » التي تربط اليد ، بأصابعها ، بالجسم
 في حركة الدعاء ؟

الشرفات :

ويتكامل هذا التناغم المعماري مع شرفات المسجد ، هذه الوحدات
 الصغيرة التي تزين الأجزاء العليا من جدرانها .
 ماذا تحس به وأنت تنظر إليها ؟
 أنت تحس أن الفنان الإسلامي لم يختم بناء المسجد بخط صارم يفصل
 بين الأرض والسماء .

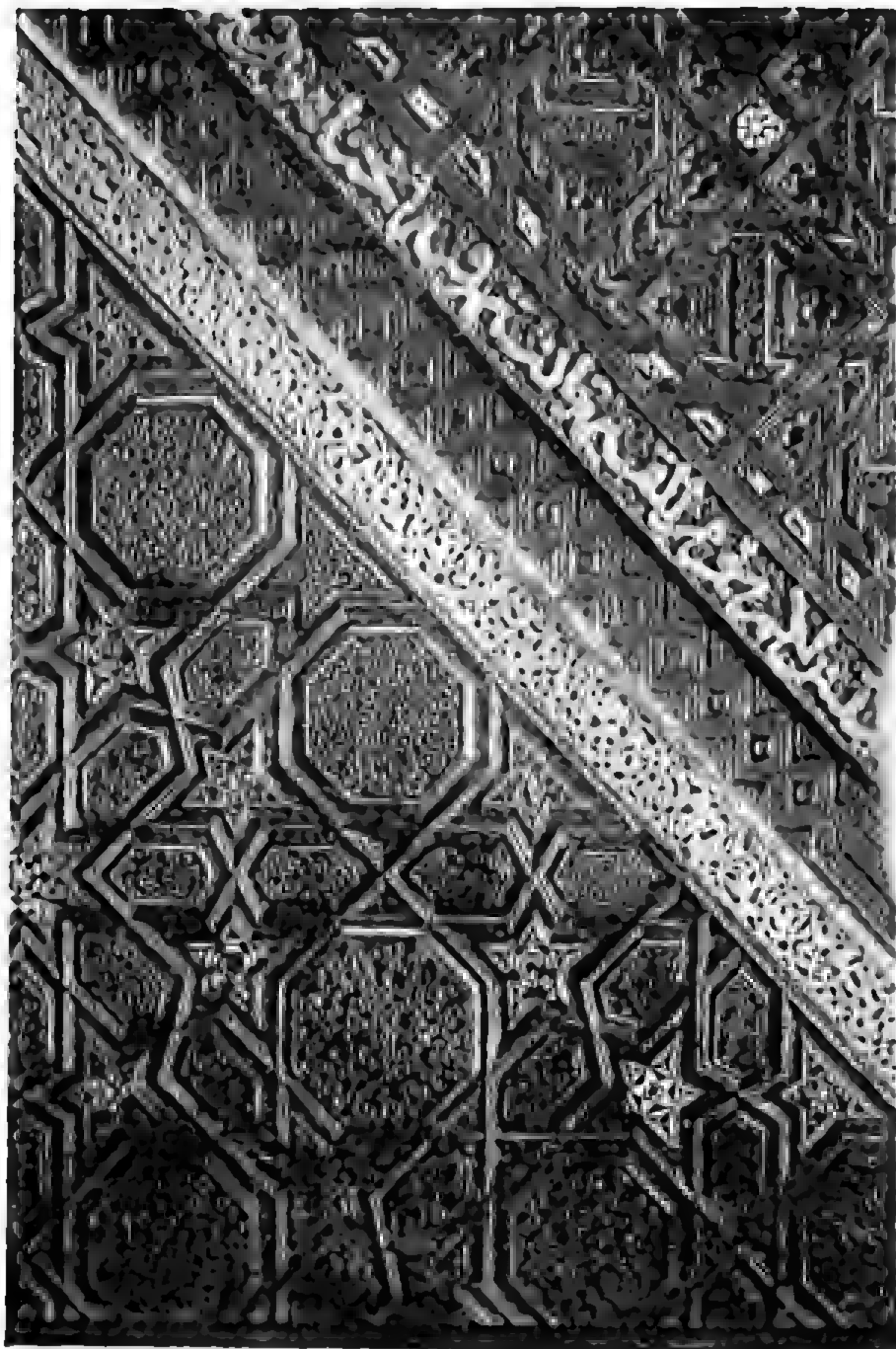
فخط السماء — كما نسميه فنيًا — خط مزخرف كأنه حديقة ، ولكنه
 يمتاز عن الحديقة بأن الفراغ بين الشرفات فراغ زخرفي .

الفنان المسلم يتحرى في الفضاء نفسه أن يكون زخرفيًا . فحركة
 عينيك إذا صعدت من الأرض إلى السماء ، ستنهى بزخرف تختلط فيه
 السماء بالفضاء ثم ينطلق بعد هذا إلى السماء . وفي حركة عينيك أيضاً من
 الفضاء ستنهى إلى فضاء محدود زخرفي بين الشرفات — أو عرائش السماء
 كما تسمى أحياناً — ثم ينساب نظرك بعد هذا إلى المسجد .

ولك أن تقول إن الشرفات والمئذنة تتعاون جميعاً في الربط بين
 الأرض والسماء ، والتوافق بينهما في حركة رقيقة متدرجة .

القانون والجمال والتناسك :

ولنتقل الآن إلى مراحل المسجد نتأمل بعض ما فيه .
 سنقف عند المنبر . وهذه الأطباق النجمية على جوانبه . سنرى هذه



تفاصيل من منبر المسجد الأقصى

الزخارف الهندسية الدقيقة بقوانينها الصارمة : مثلثات . مربعات .
مخمسات . سدسات . . أشكال تتعدد أضلاعها . وتخرج من شكل
لتدخل في شكل آخر . والخط مع تكسره وزواياه الحادة والقائمة والمنفرجة
تحس به ممتداً جميلاً .

— ما هذه القوانين الهندسية الدقيقة التي تحكم العمل ؟
— وما هذا الجمال الذي يبدو به العمل بعد تمامه ؟ جمال تبدو به
قواعده الهندسية كأنها ذابت في التعبير المؤمن الذي أراده الفنان .

ولنسائل أنفسنا : ماذا نريد في الحياة أروع من هذا :

١ — دقة في القانون . .

٢ — جمال في الأداء . .

٣ — تماسك بين الأجزاء . .

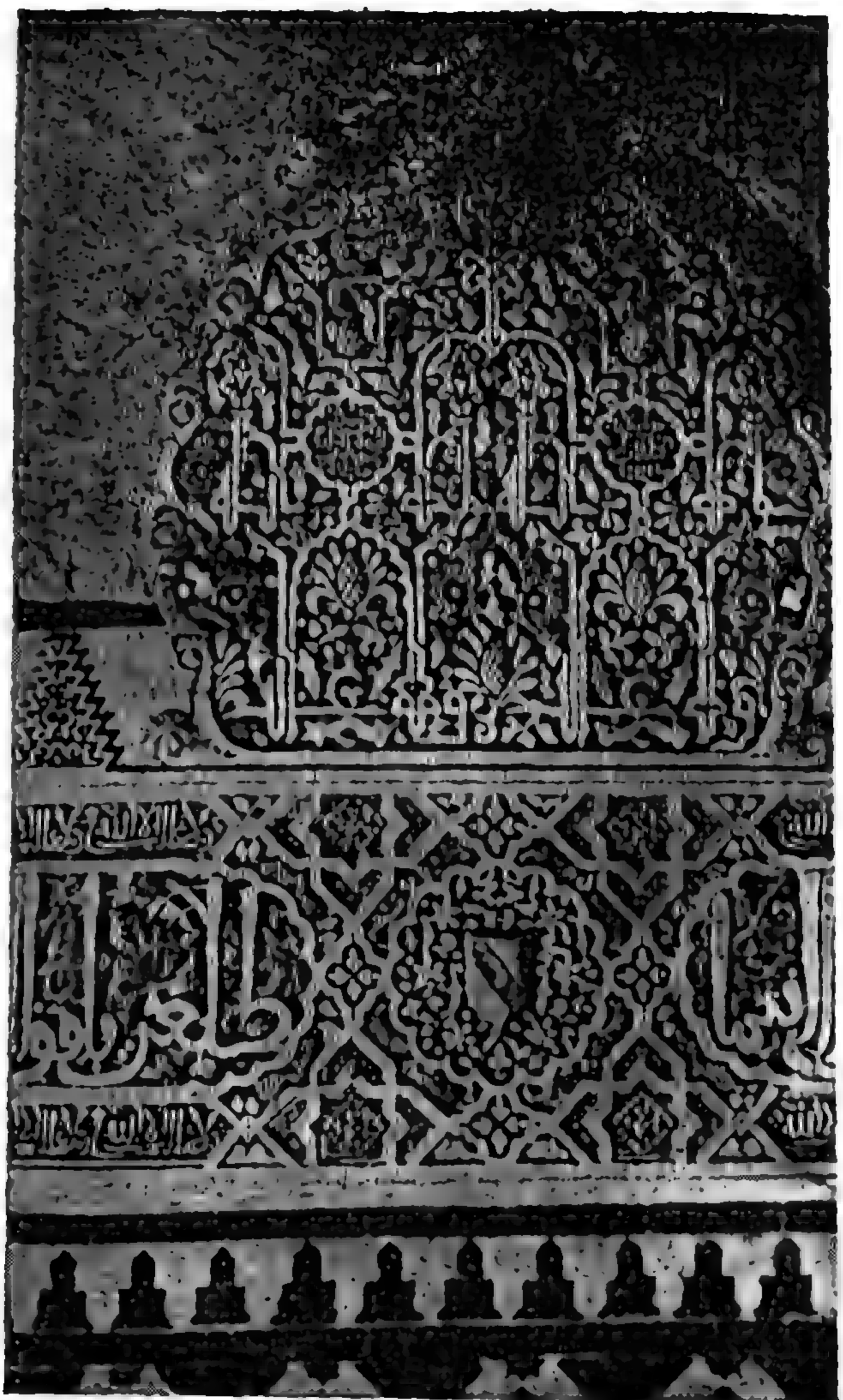
وهل اكتفى الفنان الإسلامى بأن يجعل من المنبر مكاناً يلتقى من فوقه
الخطيب عظاته . . أو صور بفنه على جوانب المنبر عظته الدائمة ؟ وإذا
بأذنك تسمع عظة الخطيب ، وبعينيك ترى عظة الفنان على جوانب
المنبر . وهل هناك من فارق في المضمون بين العظة الناطقة والفن المبدع
وصفوف الصلاة في دقتها وجمالها وتماسكها ؟

الجزء والكل :

ولنتظر بعد هذا إلى الزخارف الرخامية التي تزين أرض المسجد ، وإلى
طبيعة الزخرفة الإسلامية في التكرار .

سترى الجزء الصغير ، إذا نظرت إليه وحده ، جميلاً . . وهو يتكامل
مع الأجزاء الأخرى . . وسترى الكل جميلاً ، وله وحدة وتكامل في الوقت
نفسه .

وتنتقل عينك من الجزء إلى الكل . ومن النظرة الشاملة إلى النظرة



• لا غالب إلا الله •

كتابة كوفية ذات خلفية من الزخارف النباتية من خزائنه

المستأنية المتأمل في الأجزاء الصغيرة مرة أخرى ، وفي ترابط هذا كله .
سترى وضوح شخصية الجزء الصغير . ووضوح الشخصية المتكاملة ..
وتماسك الجزء في الكل .

وأنت هنا — فنياً — أمام المجتمع الإسلامي الذي يرعى الصغير والكبير ،
ويحتفظ بموقف متزن بين شخصية الفرد وشخصية المجتمع . .

وتستطيع أن تتابع دراستنا لمعاني المحدود والمطلق ، والرخيص الذي
يتحول إلى نفيس ، حين تمتد إليه اليد المفكرة الصانع . . فتجعل من قطع
الخشب الصغيرة وحطام الرخام تحفاً فنية رائعة . .

كثيرة هي الدروس التي تسمعها من المسجد في صمته ، وتقرؤها
على حوائطه وفي محرابه وأرضه .

وكثيرة هي الوظائف التي تستطيع أن تؤديها المساجد للمجتمع .
وتشتد إليها الحاجة إذا ما كان المجتمع على معبر وعمر بين واقعه وآمال
غده . . .

هنا نجد التلاقي بين المحراب والميدان . . بين المنبر وأبراج المراقبة
والمرابطة على الحدود . بين صوت المؤذن وصوت المعركة . بين كلمة
السلام تشيع في جو المسجد ، ونداء السلام القائم على العدل ، وهو هدف
كبير نسعى إليه .

بهذا يصبح المجتمع مسجداً كبيراً ، والمسجد « جامعاً » لوظائف
كثيرة :

وبعد ؛ ففي القرآن الكريم كثيراً ما يقرن ربنا تبارك وتعالى بين نزول
الوحي من السماء ونزول المطر : هذا يحيي الأرض بعد موتها ، وهذا
تحيا به القلوب . .

ومن بيت الله يشرق نور الإيمان ، وعلينا أن نترجمه عملياً إلى واجبات
في حياتنا اليومية تزكو بها الحياة كما يزكو النبات بماء السماء .

فليكن إيماننا عملاً ، وعملنا مؤمناً ، لنقيم « مجتمع العلم والإيمان » على
هدى وبصيرة .

داعياً الله أن يبارك جهودنا حتى نحرر أرضنا المغتصبة وأوطاننا
السليبة ، ونعيد السلام إلى أرض السلام .

الفصل الثامن

أمام لجنة الدستور المصري ١٩٧١

ألقيت هذه الكلمة أمام لجنة الاستماع
المشكلة برياسة السيد رئيس مجلس الشعب في
١٢/٦/١٩٧١ في قاعة مجلس الشيوخ . القاهرة

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة الأعضاء

أشكر لكم أن أتحم لي هذه الفرصة لأتحدث إليكم حديثاً يتصل أساساً بالمقومات الأساسية للمجتمع مع تركيز على جانب الإيمان والأخلاقيات التي دعا إليها السيد الرئيس محمد أنور السادات .

وحيثما كنت أعد ذهني لهذا الموضوع رجعت إلى الموسوعة العربية للدساتير العالمية ، التي تفضل مجلس الشعب بتوزيعها . رجعت بصفة خاصة إلى دستوري سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٤ فوجدت فيهما النص على أن الإسلام دين الدولة ، واللغة العربية لغتها الرسمية ، وأن السيادة للشعب ، كما وجدت النص على حرمة البيوت وحرية الاعتقاد والرأي والبحث العلمي ، وأن المصريين لدى القانون سواء ، وأن وحدتنا الوطنية التي يصنعها تحالف قوى الشعب العامل هي التي تقيم الاتحاد الاشتراكي العربي ، ليكون السلطة الممثلة للشعب ، الدافعة لإمكانات الثورة ، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة ، ووجدت تأكيداً لنظامنا الاشتراكي بدعامتيه من الكفاية والعدل .

وتذكرت ما كان من قيام مراكز القوى ، قيامها بعد قوانين يولية الاشتراكية سنة ١٩٦١ ، وقيامها بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، واندفاعها المحموم بعد رحيل القائد المعلم جمال عبد الناصر ، تحاول أن تصوغ من أحزاننا ، ثم من صبرنا ووفائنا وصمودنا ، أسلحة لا توجهها إلى عدونا ، وإنما إلى صدورنا ، وأجهزة استماع تفتحهم علينا

سراثرنا وبيوتنا ، مما تذكرت به مع فارق في الهدف والوسيلة قول الشريف الرضى (١) :

فلتدخلنَّ عليه قبَّته . ولاجةٌ تخفى على الرصدِ
وهواجمٌ يَدْفَعُنَّ كُلَّ يَدٍ ونوافذٌ يهزَّان بالزردِ
نعم . . دخلت علينا بيوتنا أجهزة استماع ولاجة تخفى على الرصد ،
وهواجم تحت ستار الثقة والأمن تدفع كل يد ، ونوافذ تهزأ بالزرد والحرس
الشديد ، وتفتح الأسوار والأسرار والمخادع .

كل هذا ، ونصوص الدستور بين أيدينا ، وآيات الله تتلى بيننا :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ
بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ،
فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (٢) . . .

وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٣) .

بل إن القرآن الكريم ليسجل قول الله تعالى في الأعماق التاريخية

(١) ديوان الشريف الرضى (١: ٣٩٧) ط . بيروت ، ١٩٦١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٢ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٧ .

لأخلاقنا وعقائدنا فيقول : (إِنَّ هَذَا كَفَى الصُّحُفِ الْأُولَى .
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) (١) .

العبرة إذن ليست في صياغة المواد ، ووضع النصوص ، إنما العبرة في التطبيق ودعم الصلة — ما استطعنا — بين مواد الدستور والقوانين والممارسة اليومية .

ومن أجل ذلك فإنني أقترح أن ينص في الدستور على هذا الترابط العضوي الوثيق — بل المتكامل — بين الدستور والقوانين والممارسة اليومية على المستوى الشعبي والسياسي والحكومي ، بحيث لا تأتي الممارسة — مهما كان مصدرها — على النصوص تنقصها من أطرافها ، فلا تبقى منها عملياً إلا لوحة جميلة للحرية تختفي وراءها أجهزة استماع إلكترونية .

ولعل فيما حدث أن يكون ختاماً لمرحلة يتحتم معها القضاء على مراكز القوى ، وإيداناً بميلاد فجر جديد ، تنسج أمتنا بالعلم والإيمان صفحته المشرقة وتعيش ، كما قال السيد الرئيس محمد أنور السادات ، أسرة واحدة .

قد يكون الاتجاه الغالب أن تصاغ نصوص الدستور جامعة مانعة ، تماسك موادها حتى تصبح كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، ويحول بين أمتنا المؤمنة وتكوين مراكز القوى ، فإذا ما جاءوا دستورنا ما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً .

ولكني أومن أن حياة الشعب لدستوره باعتباره تجسيدا لصورة حياتنا ، في أعماقنا الوطنية ، وحاضرنا المناضل ، ومستقبلنا الذي نحلق نحوه بجناحين من العلم والإيمان — أومن أن هذه الحياة أقوى من المواد نفسها ومن نصوص الدستور .

وقد رأى مجتمعنا المؤمن نفسه في مرآة ذاته يومى ٩ و ١٠ يونية سنة ١٩٦٧ ثم يومى ١٤ و ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، رأى نفسه شامخاً فوق الهزيمة العسكرية مرة ، والتآمر الداخلى مرة ، مقابلاً عداوات فرضها عليه الاستعمار العالمى والصهيونية والعدوان الإسرائيلى ، وعداوات فرضتها المطامع وشهوات السيطرة ومراكز القوى . . .

ولقد أجرى شعبنا جراحته لنفسه ، وما أقسى أن يجرى الإنسان لنفسه جراحة مرة بعد مرة ، أجراها وهو في ميدان القتال ، ولكن سرعان ما نبتت مكان الأجزاء المبتورة أجزاء جديدة خضراء نضرة نقية في طهارة الندى واستقامة الشعاع .

وبدا شعبنا المؤمن المتجدد دائماً ، الصامد دائماً ، برغم المكاييد والجراح والآلام ، كأنه كلمة الحق ، كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

أسائل نفسى : ما العاصم الأكبر الذى عصم أمتنا ؟ أكان نصوصاً مكتوبة أم روحاً دافعة دافقة ؟

إن كل مواطن فى أمتنا هو الإجابة الحية المستمرة عن هذا السؤال . .

المواطن الذى يحمل ميراثاً حضارياً ، أصيلاً ، مستمراً ، متجدداً ، والذى تعود الصعود فوق نكساته إلى آفاق آماله ، محمداً رؤيته وموقفه ، متخذاً إلى غده سبيلاً .

وإلى هذه الروح المبصرة المؤمنة ينبغى أن تتجه عنايتنا حماية ورعاية ، وتأصيلاً وازدهاراً على مستوى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، فى المدرسة والحقل ، والمصنع والجامعة ، ومنتديات الشباب ، وميادين القتال .

السيد / رئيس مجلس الشعب

حضرات الإخوة

فى هذا الصدد أقترح تعديلات وإضافات فى بعض المواد المتصلة بالمبادئ العامة بمقومات المجتمع والأخلاقيات التى أوصى بها الرئيس محمد أنور السادات كنماذج لخطتنا الفكرى بعد تصحيح ١٤ و ١٥ مايو ، هذا بالإضافة إلى ما جاء بدستور سنة ١٩٦٤ .

١ - العلم والإيمان والتضامن الاجتماعى أساس المجتمع المصرى .
٢ - الرعاية الأخلاقية حق للمصريين جميعاً تكفلها الدولة بالتربية والأسوة الحسنة .

٣ - القرآن الكريم ، وقد جاء مصداقاً لكل الأنبياء والمرسلين ، هو المصدر الأساسى للأخلاق فى مجتمعنا المصرى ، وحياة الأنبياء فيه هى المثل العليا للحياة الإنسانية .

٤ - ترعى الدولة التراث المصرى والعربى والإسلامى ، وتساهم فى صيانة التراث الإنسانى فى أبعاده الزمانية والمكانية .

٥ - الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع .

٦ - الأخلاق أساس فى تقييم العاملين مصداقاً لقول الله تعالى :

(إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)^(١) .

٧ - الوحدة الوطنية مصدر أساسى لحركة مجتمعنا على أساس من الوحدة والسماحة .

٨ - المجتمع المصرى أسرة كبيرة تعيش فى ظلها الأسر الصغيرة فى حب ومرحمة .

٩ - رعاية الوالدين والإحسان إليهما واجب إنسانى وقومى ودينى .

١٠ - الكفاية العلمية والأخلاقية أساس في التقويم لتولى المسئوليات القيادية .

ولقد كرم الله العلم والإيمان في كتابه عندما تحدث عن خاتم الأنبياء والمرسلين قائلا : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (١) .

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٢) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما طبيعة الإيمان والأخلاق التي نريدها ؟

هذا الخلق له من حيث الطبيعة ثلاثة أبعاد رئيسية :

(أ) أن يحدد المستوى الذي يتم به في أى عمل . .

(ب) أن يدفع الفرد والمجتمع إلى أهدافه . .

(ج) أن يحول دون الانحراف .

ومن ناحية مصادره له أيضاً ثلاثة أبعاد هي :

١ - مصدر له بعمق زمني يشمل الجهد الصالح في تاريخ الإنسانية

كلها ، وفي مقدمتها جهود الأنبياء والمرسلين (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ

مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (٣) .

(١) سورة طه : ١١٤ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة هود : ١٢٠ .

٢ - مصدر له بُعدٌ مكاني لا يقتصر على أمة واحدة ، بل يشمل آفاق الأرض جميعها . وفي القرآن نجد النماذج الكثيرة القائمة فوق أرضنا وغير أرضنا ، ونماذج تسعى إلى مطلع الشمس ومغربها ، بل إن هذه النماذج تتطلب أن تتلمذ الإنسانية عليها ولو أمضت حياتها في سبيل البحث عنها كما رأينا في قصة موسى والعبد الصالح .

٣ - مصدر ثالث نستطيع أن نسميه البعد الموضوعي أو التكامل الموضوعي ، ذلك لأن هذه الأخلاق لا تقتصر على ناحية واحدة بل تشمل جوانب حياتنا المختلفة : وعلى سبيل المثال

نراه في قصة شعيب اقتصاداً وعدلاً
ونراه في قصة يوسف عفة وتخطيطاً علمياً . .
ونراه في قصة عيسى دعوة إلى المحبة والمودة . .
ونراه صراعاً في قصة موسى ، صراعاً مع عداوات داخلية في بني إسرائيل . .

ونراه في قصة نوح مسيرة بالإنسان تفصل بين عهد وعهد . .
ونراه في قصة إبراهيم حواراً عقلياً حول مصدر الإيمان وعملاً متصلاً في أكثر من جهة : في العراق والشام ومصر والحجاز . .
ونراه عند داود ترتيباً وتسبيحاً . .
ونراه عند أيوب صبراً . .

ونراه عند محمد صلى الله عليه وسلم بناء متكاملًا لمجتمع جديد بيني والوحي ينزل . بناء يضم مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .
كافة .

هذا مع جمع الإنسانية كلها إيماناً بكل نبي ورسول ، وإخاء يتمثل في دعاء الرسول عقب صلواته : « اللهم إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة » .

إن مهمة الرسول الأعظم يحددها قول الله سبحانه وتعالى :

(يَا مُرَّهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلْ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (١) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما هي حياتنا الجديدة التي يحددها الدستور ؟
إنها رغبة خبزنا ، وكساء أجسادنا ، والدفع في شتائنا ، والعمل
في مصانعنا وحقولنا ، والعلم في معاهدنا وفكرنا ، والسلاح القادر لجيشنا ،
والكفاية والعدل ثماراً لا شترأ كيتنا .

إنها الإيمان العميق في قلوبنا ، والصلاة والقرآن في مساجدنا ،
والسباحة والأخوة في ديننا ، والوحدة الوطنية في مجتمعنا ، والكلمة الشريفة
على شفاهنا ، والأخلاق الكريمة في حياتنا ، والأمن والأمان في بيوتنا .
إنها البسمة على فم الشيخ حين يطرق باب الشيخوخة هادئاً مبتسماً
كأنما يدخل حديقة الوفاء ، والنظرة الآمنة في عين الطفل والأم بدون
فرع من طارق الليل يتترع الأب عدواناً وظلماً .

إنها روح الأسرة التي نادى بها الرئيس محمد أنور السادات تجمع
الأمّة حاكماً ومحكوماً ، فتصبح كما تعلمنا من رسول الإنسانية عليه
الصلاة والسلام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر
الجسد بالسهر والحمى .

إنها الحركة الواعية نحو مستقبل نستعيد فيه أرضنا ومقدساتنا وحقوق
شعب فلسطين ، ننطلق من قاعدة شعبية صلبة ووحدة وطنية ، ننطلق

علماء في عصر العلم ، مؤمنين كما عشنا دائماً ، باسطين اليد بالأخوة
والسلام لكل محب للتقدم والسلام ، مدافعين بالسلاح عن حق
لا نصل إليه إلا بالسلاح .

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة

رعى الله أمتنا في مواقع البناء والنضال ، وأعاننا على إقامة دستورنا
وحياتنا على العلم والإيمان .

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا

رَشْدًا) (١) .

الفصل التاسع

مناسبات إسلامية

نصف شعبان في الدين والحياة*

يرتبط النصف من شعبان في حياتنا الإسلامية بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في السنة الثانية للهجرة ، قبل غزوة بدر الكبرى . وكان هذا التحويل هزة فكرية عميقة في مجتمع المدينة ، ترددت أصداؤها بين كل قوى المجتمع : المسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

ولكى تتضح الصورة أمامنا ينبغي أن نضعها في سياقها التاريخي : مكانة البيت الحرام في نفوس المسلمين عميقة أصيلة . هو أول بيت وضع للناس . رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل . واستجابا لأمر الله « أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . يقول عليه الصلاة والسلام وهو في طريق هجرته مناجياً مكة : « إني لأعلم أنك أحب البلاد إلي ، وأنت أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت » (معجم البلدان لياقوت ٥ : ١٨٣) . كانوا يذكرون مكة في أسماهم ، ويذكرونها إذا ما اشتد بهم المرض حتى تسيل الدموع حنيناً إلى البيت العتيق . ويأتي الأمر الإلهي بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة . الكعبة الحبيبة في قلوبهم . . ولكنهم لا يستقبلونها في الصلاة . وبيت المقدس قبلتهم في حين يقاسون المؤامرات المتوالية ممن يتجهون إليه في صلاتهم ، وهم يهود المدينة . أما النصارى فيتجهون إلى المشرق . وتتضح صورة هذا التوتر النفسى إذا ما رجعنا إلى صدر سورة البقرة وهي أولى سور القرآن نزولاً في المدينة : فهي تبدأ بعرض صنوف الناس أمام الإسلام : المؤمنين والكافرين

* الأهرام ١٨ من شعبان ١٣٩١ هـ = ٨/١٠/١٩٧١ م .

والمنافقين . وتنتقل إلى عرض موجز لبدء الخليفة . ثم للمجتمع اليهودي في تفصيل عميق ، وتقلبه بين الإيمان والكفر ، وإطاعة الأنبياء وقتلهم ، وفضل الله عليهم وعقوقهم ، وأساليبهم في الحرب والسلام . كل هذه المعلومات من الوحي ومن الحياة اليومية ، كانت أمام المسلمين وفي قلوبهم وفكرهم . . .

ومع هذا كله يتجهون إلى بيت المقدس في الصلاة . هذا والاستعداد العسكري مستمر ، وسرايا الرسول عليه الصلاة والسلام وغزواته تجوب مسرح العمليات المنتظر : من ساحل البحر الأحمر إلى ما وراء مكة جنوباً بشرق طريق الطائف .

فع التعبئة الفكرية والتنظيم السياسي لأوضاع المدينة الداخلية وما فيها من أحلاف ، ودعم الجبهة الداخلية وصيانتها من مكائد المنافقين واليهود - مع هذا كله كان في القلب حنين إلى البيت الحرام واتجاه في الصلاة إلى بيت المقدس .

واتخذ اليهود من هذا الموقف المتناقض - من وجهة نظرهم - مادة حديث .

لقد بدأ المسلمون أولاً بالاتجاه نحو الكعبة . ثم اتجهوا إلى البيت المقدس (تفسير الطبري ٣ : ١٣٩ ط . دار المعارف) .

وقال اليهود عن الرسول (عليه السلام) : يتبع قبلتنا ويخالفنا في ديننا (تفسير الطبري ٣ : ١٧٣) .

والمنافقون والمشركون ينفخون معهم في كبر الفتنة .

تحويل القبلة :

وتتصاعد أحداث المدينة سياسياً وعسكرياً وفكرياً في الشهور الستة عشرة أو السبعة عشرة الأولى بعد الهجرة . ويقلب الرسول نظره في السماء . وموضوع القبلة له حساسيته ومكانته .

ويأتى أمر الله بتحويل القبلة . .
ويدلنا السياق القرآنى على أن القضية كانت ساخنة عنيفة فى
المدينة . .

فبعد أن ذكر الله تعالى آيات عن وحدة الإيمان بين الأنبياء جميعاً ،
انتقلت الآيات الكريمة إلى الرد على الذين أثاروا الفتنة . وذلك قبل أن
تذكر الآيات الأمر بتحويل القبلة . .

ونحن نقرأ قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ، ما ولاهم
عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب . يهدى من يشاء
إلى صراط مستقيم » (البقرة ، ١٤٢) .

ونعود إلى كتب التفسير لنرى صورة من هذا الحوار الفكرى ، أو إن
شئت اصطلاحاً حديثاً « الحرب النفسية » ، فى مجتمع المدينة حول قضية
تحويل القبلة :

حوار ومحنة :

يقول الطبرى فى تفسيره (١٥٦ : ٣) : « إن محنة الله أصحاب رسوله
فى القبلة ، إنما كانت — فيما تظاهرت به الأخبار — عند التحويل
من بيت المقدس إلى الكعبة ، حتى ارتد فيما ذكر — رجال ممن كان
قد أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأظهر كثير من المنافقين —
من أجل ذلك — نفاقهم : وقالوا : ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا
ومرة إلى ههنا ؟

وقال المسلمون ، فىمن مضى من إخوانهم المسلمين ، وهم يصلون
إلى صخرة بيت المقدس : بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت .
وقال المشركون : تخير محمد فى دينه . فكان ذلك فتنة للناس .
وتمحيصاً للمؤمنين » .

كان هذا التحويل على المشهور في منتصف شعبان ، وإن ذهبت بعض الأخبار إلى أنه كان في رجب ولها أسانيدھا .
 وذهب الصحابة إلى الرسول يسألونه عما سلف من صلاتهم إلى بيت المقدس فتزل قول الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم » (البقرة : ١٤٣) .
 أما التحويل فأجاب عنه القرآن في حسم ووضوح : « لله المشرق والمغرب » :

بيت المقدس لله . والمشرق لله . والبيت الحرام لله .
 وإنما هي للمؤمنين تجربة « إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (البقرة : ١٤٣) .
 وانتهزها اليهود فرصة فقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه .
 وسرى الأمر إلى مشركى العرب فقالوا : رجع محمد إلى قبلتنا ،
 وسيرجع إلى ديننا (الطبرى ٣ : ٢٠٢) .
 ويرد عليهم الحق مثبتاً المؤمنين « فلا تخشوا الناس واخشوني ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » (البقرة : ١٥٠) .
 إنه إذن الأمر الإلهى الذى أتى مصداقاً لما يحب الرسول ويرضى « فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة : ١٤٤) .

إسلام :

ألسنا نرى في هذا صورة فيها بعض أوجه الشبه من قصة إبراهيم وإسماعيل « يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك » (الصافات : ١٠٢) .
 وأسلم الولد والوالد أمرهما لله طواعية . فلما تحقق إسلام النفس كان فى هذا نجاة الوالد والولد ؟ .

هذه الكعبة ملء قلوب العرب ، والله يأمرهم أن يتحولوا عنها إلى بيت المقدس برغم كل دسائس اليهود ومكايدهم . وقد بدأت قبل الهجرة عندما استعانت بهم قريش في الحرب الفكرية بينهم وبين المسلمين . ويمثل المسلمون لأمر الله . . فله المشرق والمغرب . . ويتحملون ضغوط الحرب النفسية ضدهم هذه الشهور صابرين مؤمنين . . فإذا ما تحقق في النفس صدق التوجه إلى الله ، وكمال الإسلام إليه ، استجاب الله لرسوله والمؤمنين « فلنولينك قبلة ترضاها » .

ولقد كان من وراء ذلك هذا الحوار الساخن حول « اضطراب » الفكر الإسلامي ما بين الكعبة وبيت المقدس . . وظهور الدين الجديد بأنه يحول القبلة ههنا مرة وههنا مرة . .

ولكن مع كمال الامتثال كانت الحجة القوية التي — وإن قيدت الإسلام بالاتجاه نحو البيت الحرام — قد أكدت بصورة عملية أن الملك كله لله . . « ولله المشرق والمغرب » .

لقد كان فيها نوع من « الفطام » عن الاتجاه إلى البيت الحرام بعض الوقت امتثالاً لأمر الله ، والاتجاه إلى قبلة لم يكونوا يتجهون إليها . . ثم عودة إلى هذه القبلة مرة أخرى . ثم كتب الله لهم مع الفتح أن تعود قبلتهم إليهم وطهروها من الأصنام .

مكانة المسجد الأقصى :

ولكن : هل مس هذا مكانة المسجد الأقصى في نفوس المسلمين ؟

لقد كرم الله هذا المسجد في كتابه فقال :

« سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

وإن الله يذكر في القرآن لفظ « عبد » تمجيذاً لرسوله في أكرم

مواقفه : جاء ذكره في الإسراء والمعراج ، والدفاع عن صدق النبوة

وعن كتاب الله ، وتمجيذاً لرسوله في الدعوة إليه .

وإن الرسول (ص) ليذكر في حديثه :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » .

هو المكان الذي بلغ من قداسته عند المسلمين : أنه في العام الخامس عشر للهجرة عندما استطاع المسلمون تحرير بيت المقدس ، طلب أهلها أن يكون أول الداخلين إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وجاء الخليفة من المدينة مستجيباً لهذه الرغبة الكريمة . .

ولنسائل أنفسنا : من الذي يملئ الشروط ؟ القائد المنتصر أم أهل المدينة ؟

ولكن مكانة بيت المقدس كانت أكبر في نفوسهم من أن يبدى أهلها رغبة ثم تضيع وسط أفراح النصر .

وفي يوم التحرير ارتفع صوت بلال لأول مرة مؤذناً بالصلاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . . ذلك الصوت الإفريقي المؤمن هو الذي أكرمه الله بأن يكون المؤذن الأول في مسجد المدينة وفوق المسجد الحرام عام الفتح ، وفي القدس الشريف عند تحريره . . فما رأى المسلمون باكين بعد وفاة الرسول كما كانوا في ذلك اليوم . .

هذه كرامة بيت المقدس عليهم : دخول في خشوع مع بكاء وحنين إلى أيام النبوة العطرة .

ولم يرض عمر أن يصلي في كنيسة القيامة لئلا يتخذها المسلمون من بعده مسجداً . . وهو يعلم أن الرسول أذن لنصارى نجران بالصلاة في مسجد المدينة عندما زاروه فصلوا إلى المشرق (ابن هشام ٢ : ٢٢٤) .

الاستعداد للمعركة :

ومع الاحتفاظ في القلب بمكانة بيت المقدس ، وإن انصرفت القبلة عنه ، والاتجاه إلى البيت الحرام ، وإن كانت الأصنام لم تزل فيه ، والحوار الدائر حول هذا كله في لقاءات المؤمنين والمنافقين والمشركين واليهود ، فإن العمل السياسي والعسكري كان يتصاعد باستمرار .

لقد فرض الله الصيام في رمضان وشرع زكاة الفطر . . . وبعد شهر من تحويل القبلة حدث اللقاء المباشر بين المسلمين وقريش في غزوة بدر في اليوم السابع عشر من رمضان وانتصر المسلمون (٣١٥) على قوة تزيد على ثلاثة أضعافهم . ولم يكن معهم من الخيل إلا اثنان أمام مائة في معسكر الأعداء ومن الإبل سبعون مقابل سبعمائة .

وبعد الغزوة بنحو أسبوعين جمعت المؤمنين صلاة العيد : لهم قبلتهم وصلاتهم الجامعة وتضامنهم الاجتماعي بالزكاة وانتصارهم العسكري في بدر وأحزانهم النبيلة على من سبق إلى الله من الشهداء . . . وتحدثت نواح كثيرة من طبيعة المجتمع الإسلامي الجديد .

وانعكس هذا ضيقاً في نفوسهم بهذه الصورة الجديدة .

— ماذا يفعلون بالربا وهذه الزكاة صورة من الإخاء ؟

— وماذا يفعلون بالفرقة والدس وهذه صفوف الصلاة تضم المسلمين .

— وكيف يستطيعون على المسلمين بالحصون وقد سجلوا هذه الانتصارات ؟

وأخذوا في تحدى النبي (ص) والذين معه وحدث الصراع العسكري الأول بينهم في غزوة بني قينقاع التي طهرت قلب المدينة من مكائدهم وقضت على سيطرتهم على التجارة الداخلية وعلى بعض الحرف الأساسية مما يرتبط بها من علاقات خارجية .

هذه هي ذكرى النصف من شعبان في إطارها التاريخي ، وموقعها على خريطة الأحداث في المدينة .

طبيعة الإيمان في مجتمعنا المعاصر*

في هذا الحديث لا أود أن أتناول الإيمان من الناحية النظرية فهذه متوافرة بين أيدينا ، يتلقاها الطالب على مقاعد الدرس والمواطن في المسجد وأجهزة الإعلام . . .

ولكني أود أن أطرح سؤالاً عن الوجه الذي نود أن يبرز به الإيمان في حياتنا . ولنعد إلى عصر النبوة لنرى طبيعة الإيمان فيه وصلته بالحياة . .

كان الإيمان « بعثاً » كاملاً متوازناً للحياة في كافة مرافقها ، كان تحطيماً لكل قيد يحول دون انطلاق الحياة نحو غد أفضل . ولنقرأ في هذا قول الله تعالى مبيناً مهمة الرسول (ص) « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطبيات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » . . (الأعراف : ١٥٧) .

من أجل ذلك كان اللقاء حتمياً بين أحدث ما في الحياة من علم وأعمق ما فيها من إيمان . لقاء كان إخصاباً للحياة نفسها بمزيد من العلم وآفاق جديدة يمكن أن يبرز فيها الإيمان ومن تفاعلها برزت ملامح الحضارة الإسلامية حافظة للتراث الإنساني ، مربة له ، وقائدة دائمة في هذه الانطلاقة الكبرى .

الإيمان والماء :

وأستطيع أن أشبه الإيمان من هذه الزاوية بالماء : هو واحد ولكنه يوفر الحياة لكل حي ، « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ومن الممكن أن تتحول الاستفادة من الماء إلى شيء من العبث أو اللهو كفقاقيع الصابون يمرح بها الأطفال .

ومن الممكن أن يتحول إلى مستنقعات — إذا ما ركد — تنمو فيها الأوبئة .

ومن الممكن أن يتحول إلى شلالات تضيء الحياة بالكهرباء وتدير المصانع . .

ولك أن تقارن بين موقفين لك : أحدهما أمام بركة آسنة من الماء ، ومحطة توليد الكهرباء في السد العالي . . الماء واحد . والموقع مختلف . . هنا ركود وهناك حركة وحياة .

الإيمان حركة :

لا نستطيع بهذا أن نتصور الإيمان مجرداً معزولاً . هو في أمره تفاعل . ويبدأ في قلبك وفكرك ومنهما ينطلق إلى الحياة .

لذلك ربط الإسلام دائماً بين الكلمة والعقل . بين العقيدة ومجالات الحياة .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . .

بل أنت تجد ذكر الله في القرآن وارداً في المسجد كما يرد في ميدان القتال . وفي هذا نقرأ قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . . » ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ . . » .

« وَأَنْتَ بَعْدَ دُخُولِكَ بَيْتِ اللَّهِ لِلْعِبَادَةِ وَأَدَاءِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَقْرَأُ قَوْلَهُ : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

— دخول المسجد لذكر الله .
 — والخروج منه ابتغاء لفضل الله .
 — وأنت في ميدان القتال تذكر الله .
 والكون كله حركة . .
 هذه الحركة المؤمنة تراها في كل شيء حولك .
 كل ما حولك حركة . .
 الذرة الصغيرة . الكون الكبير . « الشمس تجري لمستقر لها ... القمر
 قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن
 تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .
 الحمد إذن ليس من طبيعة الحياة ولا طبيعة الإيمان .

الإيمان والعلم :

وأهم مجال يتحرك فيه الإيمان الآن هو مجال العلم . . العلم بمفهومه
 الشامل الذي وضحه القرآن الكريم . .
 فالإيمان بالله في القرآن علم . واقرأ في هذا قول الله تعالى : « شهد
 الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو
 العزيز الحكيم » . .
 والصناعة في الإسلام علم : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من
 بأسكم فهل أنتم شاكرون » . .
 وآفاق هذا الكون آيات للعالمين ولأولى الأبواب ، ولقوم يفقهون ،
 ولقوم يتفكرون .

طبيعة الإيمان :

بهذا المفهوم الشامل تبدو طبيعة الإيمان في مجتمعنا :

— إنه القوة الدافعة إلى العمل في كل مراق الحياة .

— وهو الحافظ لها من الانحراف .

— وهو الذي يحدد لها مستواها الأخلاقي في الأداء والتعامل .

الإيمان يظهر في المصنع صناعة جيدة متقدمة . وفي الحقل عناية بالإنتاج وتطويراً له . وفي الجيش كفاية سلاح وجندي وتنظيم . وفي القيادة فكراً شاملاً عميقاً له جذوره العميقة التي تربط بأرض الواقع ، وأجنحته التي يخلق بها في المستقبل ، وقوة البصيرة التي يسلك بها الطريق وسط العقبات والعواصف .

إنه يبرز على مستوى الأسرة تراحماً وتماسكاً ، وعلى مستوى المجتمع كفاية وعدلاً .

كل عامل في أى موقع من مواقع إنتاجنا وخدماتنا وجهادنا المقدس إنما يعبر عن إيمانه حين يعمل . .

وهو في الوقت نفسه يعمل بمستوى علمي عليه أن يزيد كل يوم كفاية وفاعلية ، وبهذا يتلاقى العلم والإيمان .

وإذا كان العلم هو «صورة العمل» فإن الإيمان هو «روح العمل» ، والصورة والروح في لقاء هو «حياتنا الجديدة» .

ويتجلى هذا الإيمان أكثر ما يتجلى في كل جهد في القاعدة والجهة نبذله اقتراباً من هدفنا الكبير : استعادة لأرضنا السليبة وبناء لمجتمعنا الجديد مجتمع العلم والإيمان .

دراسة الأعداء تربوية وعبادة*

نحن الآن في العشر الأواخر من رمضان ، فيها ليلة خير من ألف شهر ، أنزل فيها القرآن .
وفي العودة إلى القرآن تلاوة وتدبراً نور متجدد ما أحرانا أن نقف عند توجيهاته . . نستلهم منها الهدى في اتخاذ موقف يكون يومه - وندعو ربنا - خيراً من ألف شهر .
والقرآن الكريم يعلمنا بهذا : أن الزمن ليس أمراً حسابياً فحسب ، وإنما هو أيضاً أمر نسبي : ترتفع فيه مكانة اليوم أحياناً إلى فوق مقام السنين . .
وما يوم الخامس من يولية ١٩٦٧ ببعيد .

مدخل إنساني :

وعدت في رمضان إلى القرآن الكريم ، ووقفت عند فاتحة الكتاب بادئاً « بسم الله الرحمن الرحيم » تالياً سورة هي عهد بين العبد وربه : عبادة واستعانة . سيراً على طريق الحق بدون انحراف في جو من الحمد والرحمة عسى أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم .
هذا مدخل إنساني إلى الكتاب المين ، أنت تتوجه فيه إلى خالقك .

وانتقلت بعدها إلى سورة البقرة فإذا مدخل إنساني آخر يحتاج منا إلى وقفة وتدبر .
السورة تبدأ ببيان مواقف ثلاثة هم :

* الأهرام : في ٢٤ من رمضان ١٣٩١ هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٩٧١ م .

— المؤمنون . الكافرون . المنافقون .

وأنت تجد عرضاً فيه شيء من الإيجاز لأمر المؤمنين والكافرين وتفصيلاً أكثر لشأن المنافقين .

.. والمواقف الثلاثة واضحة : إيماناً وكفراً وتظاهراً بالإيمان مع إبطان الكفر . وفي موقف النفاق ترى أساليب متعددة ترى إلى حرب الجبهة المؤمنة وتكوين جبهة مضادة بالتعاون مع الذين كفروا . . ترى أمامك حركة النفاق ومحاولة ضربه أو احتوائه منطقة الإيمان والعاملين فيها . وتنتقل السورة بعد هذا معك إلى عرض موجز لبدء الحياة ، والسياق هنا محوره الإنسان أيضاً مع دعوة شاملة للناس جميعاً أن يؤمنوا بربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . وتنتهى قصة آدم هنا بتوبة الله عليه ، وتوضيح طريقى الإيمان والكفر والتكذيب وجزاء كل منهما .

دراسة العدو :

ولك أن تقف طويلاً عند هذه القصة . فهى هنا تستغرق الجزء الأول من القرآن أو زهاءه . ثم أنت تراها بعد هذا فى مجموعات من الآيات فى السورة نفسها :

— لماذا هذه العناية ببني إسرائيل ؟

— وكيف يعرض القرآن الكريم هذه القضية ؟

— ولماذا — ولله حكمته التى دعانا إلى التماسها — كانت فى هذا

الموقع القرآنى والمصحف ترتيبه وحى من عند الله تعالى ؟ . .

ولنعد إلى وضعها التاريخى فى نزول القرآن . .

فالسورة مدنية بلا خلاف . وهى من أوائل ما نزل بها إلا آيات معدودة

هى من آخر ما نزل .

كان نزولها فى المدينة لأوائل عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بها .

أيظل المسلمون يدعون إلى هذه الأخوة الإنسانية غير القائمة على الاستغلال ويقف يهود المدينة منهم موقفاً سليماً .
 حقاً : لقد آمن جانب من أهل الكتاب .
 ولكن هذا الترابط الوثيق بين أوضاع يهود المدينة في مجالات الاقتصاد المحلي والخارجي وقيام حياتهم على الاستغلال والربا وتفتيت قبائل المدينة . .
 هذا الترابط أعطى حياة المدينة صبغة لا يستطيع الإسلام ولا يملك إلا أن يصطدم بها : حكماً مقدوراً عليه ، مهما حاول أن يرفع ألوية السلام . .
 وقد فعل . . لأنه أراد سلاماً قائماً على العدل خاض من أجله ما خاض من معارك .

ويبدو جانب من تربية القرآن في هذا المجال :
 لقد درست سورة البقرة المجتمع الإسرائيلي دراسة موضوعية تحتاج منا إلى وقفات طوال ، أرجو أن يوفق الله إلى العودة إليها .
 درس هذا الشعب في قوته وضعفه . في إقباله على الله ، وإدباره عنه . درس كيف التوت النفوس فيه التواء وصل إلى قتل الأنبياء ، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . درس تفضيلهم المال على الإيمان بحيث أصبح المال والدنيا عقيدة ، ودعاهم الله إلى الإيمان مسجلاً هذا الطابع الذي صاغوا عليه حياتهم « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون » (البقرة : ٤١) .

فسورة البقرة بهذا الوضع وثيقة اجتماعية تمثل عرضاً تاريخياً وتشريحاً لهذا المجتمع الإسرائيلي بتطوراته وأعماقه وأبعاده . . وهو مجتمع ، كان على قاعدة الإسلام في المدينة أن تدبر معه الحوار بالكلمة أولاً ، ثم بالسلاح إذا رفض الكلمة . . وهذا ما حدث .

وهذه الدراسة جعلت قاعدة الإسلام على علم بهذا العدو الخطر :
 علم مسجل في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أيظل المسلمون يدعون إلى هذه الأخوة الإنسانية غير القائمة على الاستغلال ويقف يهود المدينة منهم موقفاً سليماً .
 حقاً : لقد آمن جانب من أهل الكتاب .
 ولكن هذا الترابط الوثيق بين أوضاع يهود المدينة في مجالات الاقتصاد المحلي والخارجي وقيام حياتهم على الاستغلال والربا وتفتيت قبائل المدينة . .
 هذا الترابط أعطى حياة المدينة صبغة لا يستطيع الإسلام ولا يملك إلا أن يصطدم بها : حكماً مقدوراً عليه ، مهما حاول أن يرفع ألوية السلام . .
 وقد فعل . . لأنه أراد سلاماً قائماً على العدل خاض من أجله ما خاض من معارك .

ويبدو جانب من تربية القرآن في هذا المجال :
 لقد درست سورة البقرة المجتمع الإسرائيلي دراسة موضوعية تحتاج منا إلى وقفات طوال ، أرجو أن يوفق الله إلى العودة إليها .
 درس هذا الشعب في قوته وضعفه . في إقباله على الله ، وإدباره عنه . درس كيف التوت النفوس فيه التواء وصل إلى قتل الأنبياء ، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . درس تفضيلهم المال على الإيمان بحيث أصبح المال والدنيا عقيدة ، ودعاهم الله إلى الإيمان مسجلاً هذا الطابع الذي صاغوا عليه حياتهم « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون » (البقرة : ٤١) .

فسورة البقرة بهذا الوضع وثيقة اجتماعية تمثل عرضاً تاريخياً وتشريحاً لهذا المجتمع الإسرائيلي بتطوراته وأعماقه وأبعاده . . وهو مجتمع ، كان على قاعدة الإسلام في المدينة أن تدبر معه الحوار بالكلمة أولاً ، ثم بالسلاح إذا رفض الكلمة . . وهذا ما حدث .

وهذه الدراسة جعلت قاعدة الإسلام على علم بهذا العدو الخطر :
 علم مسجل في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

علم يتلوه المسلم في صلاته في جوف الليل وحيداً : أو في المسجد مع إخوانه في الصلاة .

وبهذا تستطيع أن تقول إن دراسة العدو في الإسلام عبادة . وأنت لاتستطيع أن تقابل خصمك إلا إذا كنت على معرفة به . معرفة حقيقية ليس فيها مبالغة ولا تهوين .

واجبنا :

وإن المعركة بيننا وبين العدو الإسرائيلي لها — فيما أحس — مجالات أربعة رئيسية : سلاح أمام سلاح . وعقيدة أمام عقيدة . وفكر أمام فكر . وجبهة داخلية أمام جبهة داخلية .

والاستراتيجية الكبرى التي تستطيع أن تتحرك بها ومن خلالها تقوم فيما تقوم على هذه القواعد الأربع . ومستوى التصرف العلمى والفاعلية ينبغى أن يتمثل فيها جميعاً .

وما أحرانا ونحن نربى أنفسنا وأبناءنا لكفاح طويل شاق في مجتمع العلم والإيمان . . أن تكون رؤيانا واضحة في هذا كله ، واستعدادنا له يتكافأ موضوعياً مع متطلبات المعركة .

وعلى هذا المنهج سار مؤرخو الإسلام ، في دراسة العدو . ويكفى أن ترجع إلى ما كتب ابن هشام في سيرته عند دراسة المغازي ، وعرضه الموضوعى لنواحي القوة والضعف في معسكر الإيمان ومعسكر العدوان .

فهل لنا أن نعيد النظر في برنامج التربية والتثقيف في هذا الضوء القرآنى ، حتى نرى العدو في حجمه الطبيعى بلا مبالغة ولا تهوين ونرى أنفسنا كذلك ونحدد بهذا واجباتنا ومسئولياتنا . .

أعتقد أن هذا سيكون له دفع قوى . وسندرك أبعاد التحدى الذى نخوض مراحلہ نحو نصر نستعيد به أرضنا وبنى مجتمعنا، ونعيش العصر علماً وإيماناً.

ثلاثة أصدقاء في العيد*

أما الأصدقاء الثلاثة فهم عالم ومجاهد وشهيد ، أروى قصصهم من واقع حياتنا ، وإليهم وإلى إخوانهم نبعث تحية العيد .
لقد تعودنا أن يصحب بعضنا بعضاً في زيارات العيد ، فهل يأذن لي القارئ الكريم بأن أصحب في هذا المقال أصدقائي الثلاثة .

١ - عالم :

جاءتني مذكرة من إدارة التوجيه المعنوي بقواتنا المسلحة أن عالماً من علماء الدين قد أصيب في الجبهة حينما كان يؤدي واجبه المقدس بين إخوانه من الجنود والضباط وأن الإصابة أدت إلى بتر الساق .
وذهبت إليه في مستشفى الحلمية العسكري ، وبعد أن صافحته بادأني بقوله :

— لي كلمة أود أن أقولها قبل أن تبدأ حديثك معي :

قلت : تفضل .

قال : أود أن أستحلفك بالله ألا تجعل لما ترى من مصابي سبيلاً إلى نفسك يدعوك إلى تقليل عدد الأئمة والوعاظ الذين تبعث بهم وزارة الأوقاف والأزهر إلى الجبهة .

وتابع حديثه :

لقد كنت أدعو إخواني إلى الإيمان وإلى الثبات وأقول لهم إن طريقنا هو النصر أو الشهادة . ورأيت من حولي إخوة لي سبقوني إلى الله كانوا معي بالأمس القريب ثم اختارهم الله وهو سبحانه يتخذ منا شهداء . .

وأراد ربى أن يختبرنى فى بعض جسمى . . وتركت ساقى دفينة فى أرض المعركة . . وأدعو الله أن يجعلنى من الصابرين .
 ووقفت صامتاً أمام هذا الإيمان . الأعين متلاقية . وعلى وجهه سكينه ، وإلى جواره صديق مصاب بجراح .
 كل ما فى الحجرة أبيض . السرير . الأغطية . . حتى الكلمات كانت بيضاء ناصعة برغم الجراح .
 وجلست إلى جواره أسأله عن ظروف الإصابة . وأخبرنى كيف سقطت قبلة إسرائيلية غادرة على موقع كان يعمل فيه مع إخوانه من الجنود والضباط . بعضهم كان استشهاده كاملاً . والبعض كان استشهاده جزئياً . . فى بعض جسمه ، ومنهم من ينتظر . وما بدّلوا تبديلاً . . وانتقل الصديق بعد هذا إلى مركز تأهيل المحاربين بالدقى فكنت ألقاه هناك أجلس إليه أو أهدي إليه كتاباً جديداً . ونتعاون معاً فى أمره .

وحدثنى قائلاً :

— إن إخوانى هنا يستمعون إلى خيراً من قبل . لأنهم يعدوننى واحداً منهم . مصاباً مثلهم . وأنا أقضى وقتى أتنقل بين الحجرات أحدث المصابين عن الإيمان والصبر وأستمع إلى حديثهم . . فكثيراً ما يحتاج المصاب إلى من يستمع إليه لا إلى من يستمع منه . وكل أملى أن أبقى بين المصابين . هنا فى الدقى أو فى أى مستشفى عسكرى آخر أدعو إلى الله وأقوم بواجبى الدينى نحو إخوانى . .

وكنت أطيل النظر إليه ، أحاول أن أرى ما وراء الكلمات ، فكنت لا أحس منه إلا الإيمان الذى يشع من نفسه إلى نفسى ونفوس من حوله من المحاربين .

تحية له . . للأستاذ الشيخ عبد الحى يحيى شعبان كنموذج للإخوة العاملين من رجال الدين من الأوقاف والأزهر على خطوط المواجهة . . تحية لهم وتقديراً ، عبر عنه قائد مسيرتنا الرئيس أنور السادات بما منحهم

من أوسمة وما حملهم من أمانة عندما لقوه بعد تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ .
وما قاله عنهم السيد الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء وقتئذ فى خطابه
إلى مجلس الأمة عند توليه مسئولية منصبه .

٢ - مجاهد :

كان برنامج زيارتنا للجبهة أن نلقى أبناءنا من سلاح الطيران .
وضمنا لقاء فى مطار حربى . . وكان حديثهم عن مصر المستقبل .
تخطيط القاهرة . إعادة بناء منطقة القناة . التوسع الصناعى . التقدم
العلمى . الأسلحة الحديثة . الريف المضاء بالكهرباء . . مشروعات تنمية
نهر النيل .

لم يسألوا عن المعركة . . فقد كانوا هم المعركة . وذهبنا معهم فى جولة
لمشاهدت طيارات الميج المقاتلة . وذكرت فى حماسهم ودقة شرحهم
ولإقبالهم على السلاح الحديث ، ما لقيته فى يوم سابق على خط المواجهة
من نماذج رائعة فى وحدة الصواريخ ، وكيف استوعب أبناءنا ما فيها من
تكنولوجيا حديثة وأعدوا أنفسهم ليوم المصير .

وفى جلسة حول فنجان شاي كان حولنا عدد من شباب الطيارين . .
معظمهم فى مطالع العشرينات من أعمارهم أجسام ضامرة من الحياة
الرياضية والنظام الدقيق . قامت منتصبية كالرماح . وفى الوجوه بسمة
الزهر . وفى العين نظرة الصقر إذا ما تحول الحديث إلى المعركة .

وتطرق الحديث إلى الدين والعقيدة وطالبوا بإرسال مزيد من الكتب
الدينية إلى مكتبة المطار .

وقال أحد زملائى لضابط طيار فى أثناء الحوار :

— هل تصلى ؟

وكان السؤال مفاجئاً وظهر شىء من الاحمرار على وجه الضابط

ثم تمالك نفسه في سرعة . . كأنه يوجه نفسه كما يوجه طائرته وقال للضيف
 — عفواً . هل تأذن لي في استفسار قبل أن أجيب ؟
 وأذن له الضيف فقال الضابط الطيار :
 — هل رأيت في ملاحى ما يدل على أنى لا أصلى ؟
 وأشرق وجهه بابتسامة مؤمنة وقال :
 — وكيف لا أصلى وأنا أطيّر في طائرتى وحدى بين السماء والأرض
 ليس معى إلا ربى . لأنى أركب طائرتى على وضوء . وإذا لم أستطع
 صلاة ركعتين قبل الطيران ، أصلى بعد العودة من المهمة . .
 فقال صديقى : يا بنى ؛ إنما أحببت أن أطمئن . رعاكم الله ووفقكم .

٣ — شهيد :

بين المسجد والمدرسة والبيت كانت طفولته .
 أب مؤمن يرعاه . . وأم مؤمنة أرضعته أخلاقها .
 وكان يستطيع لو أراد أن يكون بعيداً عن المعركة في تخصصه العلمى
 ولكن إسرائيل فوق جزء غال من أرضه . . ولهذا الجزء ، نداء يسمعه في
 صحوه ، ويرافقه في أحلامه . ويلتحق بالقوات المسلحة ويتخرج من
 الكلية . ويأتى توزيعه في الإسكندرية . ومرة أخرى كان يستطيع لو أراد
 أن يكون بعيداً عن خط المواجهة الساخن .
 . . . كان محبوباً من زملائه وجنوده . . ومحل تقدير من رؤسائه . صارماً
 فى الحق ، هادئاً كالنسيم فى صحبته .
 ويكتب إلى قيادته طالباً أن ينقل إلى ميدان المواجهة . . وتستجيب
 القيادة لهذا الإيمان . ويودعه إخوانه ويحتفظون بالكثير من صورته فى
 محافظهم وعلى مكاتبهم صورة المقاتل المؤمن فى معركة المصير .
 وتغير طائرات إسرائيلية على موقع مدفعيته فيظل يقاتل ويقاىل . .

وتساقط القذائف حوله في حقد محموم . ويشتك التركيز . ويأتيه قدر الله فيلقى ربه شهيداً بعد أن أدى ما عليه من واجب .

قصة طولها الزمنى ثلاثة وعشرون عاماً .

وبطلها الشهيد محمد جودة الذى أنبتته أرض « تلا » الطيبة .

ويصل الخبر إلى الأب المؤمن والأم المؤمنة .

وتتخول كل مدخرات الأسرة المرتبطة بالشهيد وما له من تعويض إلى هدف واحد « بيت الله » .

جاءني الأب المؤمن لأكون معه في افتتاح المسجد في شهر رجب الماضى (١٣٩١) ويحدثني عن ولده وإيمانه .

وما أعمق الأثر الذى يتركه في النفس لقاء أب الشهيد . .

وأشد منه عمقاً حين تلتقى أم الشهيد .

وكان الأب كان يقرأ ما في نفسى فأخبرني أن الأم الجليلة المؤمنة كانت تغرس في نفس ولدها وحببها معانى الجهاد والتضحية ، وأنها أوصته بالثبات والتوجه إلى الله في آخر زيارة له قبل الرحيل . . .

ولقيت الأم الجليلة بعد افتتاح المسجد والمشاركة في الحفل بما يسر الله من كلمات وإحساس ، وكأني أراها « مصر » .

مصر الأم .

مصر البطولة التى تقدم أبنائها إلى أشرف المواقع .

وكأني أسمع منها قول عروة بن الزبير حفيد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد نعى إليه ولده : « أما الغلام فوديعة الله عندي متعنى الله به عشرين عاماً ثم قبضه إليه . له الشكر حين أعطى ، وله الحمد حين استرد الوديعة » .

وديعة تأتي يوم القيامة مع النبيين والدنيا كلها وراءهم تبع . . ولتقرأ في هذا قول الله تعالى : « ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى

بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس بما عملت وهو أعلم بما يفعلون « (الزمر ٧٠) .

إنهم الأحياء الفرحون المرزوقون المستبشرون . وفي هذا نقرأ قول الله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

تحية :

وفي يوم العيد نبعثها تحية إلى قواتنا المسلحة الرابضة على خطوط المواجهة . . .

. . تحية إلى كل مجاهد، وإلى كل مصاب، وإلى كل شهيد، وقادة العروبة والإسلام وكل محب للسلام عامل له . داعين الله — جلّت قلوبته أن يبارك في كل نبضة قلب، وحركة فكر، وجهد يد، وانطلاقة سلاح، وقطرة دم، لنكون جميعاً روافد النصر في معركة المصير .



سلسلة (اقرأ)

للكتب التي نشرت فيها منذ
صدورها في يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

- | | | | |
|----|-------------------------------|-----|-------------------------------|
| ١ | أحلام شهر زاد (د. طه حسين) | ٥٨ | خاتمة المطاف (على الجارم) |
| ٦ | شاعر ملك (على الجارم) | ٦٠ | شجرة الدر (محمد سعيد العريان) |
| ١٢ | سنوحى (د. محمد عوض محمد) | ٦٢ | مرح الوليد (على الجارم) |
| ١٤ | من يوميات فتاة عصرية | ٦٣ | أرقيق الأرض (نظمى لوقا) |
| | (حسين شوقي) | ٦٧ | أمير قصر الذهب (طاهر الطناحي) |
| ١٨ | قنديل أم هاشم (يحيى حتى) | ٨٧ | غادة رشيد (على الجارم) |
| ١٩ | سيدة القصور (على الجارم) | ٩٢ | الجامحة (أمينة السعيد) |
| ٢٢ | جمحا في جانبولاد | ١٠٥ | الحب الضائع (د. طه حسين) |
| | (محمد فريد أبو حديد) | ١٠٦ | سجل التوبة (أمين الريحاني) |
| ٣٠ | قطر الندى (محمد سعيد العريان) | ١٠٨ | سارة (عباس مود العقاد) |
| ٣٢ | الشيخ قرير العين | ١١٦ | اللحن الشرود (كرم ملحم كرم) |
| | (كرم ملحم كرم) | ١٢١ | عذراء الأندلس |
| ٣٤ | فارس بنى حمدان: أبو فراس | | (أحمد الصاوي محمد) |
| | الحمداني (على الجارم) | ١٢٢ | أشطر من إبليس (محمود تيمور) |
| ٤٣ | عنزة بن شداد | ١٢٩ | زامر الحى (محمود تيمور) |
| | (محمد فريد أبو حديد) | ١٣٠ | في بطون الليالي (رشاد دارغوث) |
| ٥١ | الشاعر الطموح: المتنبي | ١٣٥ | ليلي العفيفة (عادل الغضبان) |
| | (على الجارم) | ١٣٦ | أبو على الفنان (محمود تيمور) |

- ١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون في الوطن (إبراهيم المصري)
- ١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
- ١٥٢ قلوب معذبة (قدري قلنجي) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفي عبدالله)
- ١٥٣ دماء وطين (يحيى حتى) ٢٨٧ قصص من جوته
- ١٥٥ بنت يزيد (سامي الكيالي) (عبد الغفار مكاوي)
- ١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
- ١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
- ١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
- (عبد الله القرشي) ٢٩٢ شيء من الخوف (ثروت أباطة)
- ١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوي)
- ١٨٣ الثريا (كمال بسيوني) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
- ١٨٥ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
- ١٩٦ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسي)
- ١٩٩ عرس وماتم (البدوي الملم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
- ٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص
- (فاضل السباعي) أخرى (فتحى رضوان)
- ٢٠٩ حال الدنيا . (حسن رشاد) ٣٤٣ إني صاعدة (حلمي سلام)
- ٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادي السعيد (لويس عوض)
- ٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلاق (توفيق الحكيم)
- ٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصري) ٣٥٠ دموع في عيون ضاحكة
- ٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكيني) (يوسف جوهر)
- ٢٧٣ مذكرات طيبة (نوال السعداوي) ٣٥١ من أخطاء القضاء
- ٢٧٦ صنيعه للشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوي)
- ٢٧٨ يوسف للصديق ٣٥٢ عندما تحب المرأة
- (محمد طلبه رزق) (حلمي مراد)

الأدب

- ٢ شاعر للغزل : عمر بن أبي ربيعة ٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
(عباس محمود العقاد) ١٠٢ من نافذة العقل
- ٤ عود على بدء (د. نقولا فياض)
- ٨ مذكرات دجاجة (إبراهيم عبد القادر المازني) ١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن
الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
- (د. إسحق موسى الحسيني) ١١٨ المعبودون في الأرض
- ١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد) (د. طه حسين)
- ٢١ أبو نواس (عبد الحلیم عباس) ١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين) (د. محمد سامي الدهان)
- ٢٦ للعشاق الثلاثة : كثير وجميل ١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء
وابن الأحنف (د. زكي مبارك) (توفيق الحكيم)
- ٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد) ١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
- ٤٧ أبو زيد الهلالي ١٣١ أمين الريحاني (فاروق عبود)
- (محمد فهمي عبد اللطيف) ١٤٧ مارس يحرق معداته
- ٤٩ بين البحر والصحراء (عيسى الناعوري)
- (شفیق جیری) ١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
وتیمور والزیات وأبو حديد والعريان
- ٥٩ الجواری (د. جبور عبد النور)
- ٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري)
- ٧٦ ثم غربت الشمس ١٨٢ لمحات من الأدب الروسي
(ماهر نسيم)
- (د. سهير القلماوي)
- ٨٣ من النافذة ١٩٣ دون جوان (لطفي عبد البديع)
- (إبراهيم عبد القادر المازني)

- ٢٠٣ للقومية العربية في الأدب ٢٦٧ آخر كلمات للعقاد (عباس العقاد)
الحديث (د. محمد زغلول سلام) ٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (محمد بدر الدين خليل)
(د. يوسف خليف) ٣٣١ البطولة في الشعر العربي
٢٢٦ للنفس الإنسانية في أدب (د. شوقي ضيف)
الملاحظ (سامي الكيالي) ٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٢٣٣ المرأة في شعر البحري ٣٣٧ في اللغة والأدب
(د. نعمات أحمد فؤاد) (د. إبراهيم بيومي مدكور)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش) ٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر
٢٤٨ من الأدب الإفريقي (غالي شكري)
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقي ضيف) ٣٤٦ ذكريات عارية
٢٦٠ دعاء (علي أمين) (د. السيد أبو النجاة)

السيرة والتراجم

- ٥ ديستوفسكي (حسن محمود) ٣١ للغزالي (طه عبد الباقي سرور)
٧ للشاعر الرجيم بودلير ٣٥ جوته (صديق شيبوب)
(عبد الرحمن صدقي) ٤٢ قصة عبقرى: الخليل بن أحمد
١٥ بايرون (أمينة السعيد) (يوسف العش)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ٤٦ الشيخ للرئيس ابن سينا
ز. ن. محمود، أ. خاكي) (عباس محمود العقاد)
٢٤ لا فوازيه (عبد الحميد يونس) ٥٠ تشيخوف (نجاتي صدقي)
٥٤ وعبد العزيز أمين) تولستوى (حسن محمود)
٢٨ بوشكين (نجاتي صدقي)

- ٦٥ عمر بن عبد العزيز ١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
 (أحمد زكى صفوت) ١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
 ٦٨ جمال الدين الأفغانى ١٤٠ عائشة بنت طلحة
 (عبد القادر المغربى) (كمال بسيونى)
 ٧٠ الجبرتى (خليل شيبوب) ١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم
 ٧٢ فولتير (سليم سعدى) (محمد عبد الغنى حسن)
 ٧٧ المغنى المجنون : كاروزو ١٤٣ ابن عمار (ثروت أباطة)
 (أحمد الصاوى محمد) ١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
 ٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى) العدوية (وداد سكا كينى)
 ٧٩ بيرانديلاو (محمد أمين حسونة) ١٦٢ مكسيم غوركى (نجاتى صدقى)
 ٨٢ فرانزليست (خليل هنداوى) ١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
 ٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر) ١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسى)
 (وهدى حبشية) ١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
 ٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد) ١٩٢ أدباء من الجزائر
 ٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (د. إبراهيم الكيلانى)
 (محمد محمد فياض) ١٩٧ جان جاك روسو
 ٩٩ نساء محاربات (صوفى عبد الله) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٢ مع طه حسين (سامى الكيال) ٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
 ١١٣ عبقرية الإمام ٢٠٧ الناصر صلاح الدين
 (عباس محمود العقاد) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى) ٢٢٣ للشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
 ١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم) (محمد كامل حته)
 ١٢٥ للصديقة بنت الصديق ٢٣٢ أبو القاسم الشابى
 (عباس محمود العقاد) (رجاء النقاش)

- ٢٥٠ ابن حمد يس للصقلي (على مصطفى المصراني) ٣٠١ مع طه حسين ، الجزء الثاني (سامى الكيالى)
- ٢٥٤ من أعلام الحرية في العالم العربي ٣٠٦ سندباد في رحلة الحياة الحديث (أنور الجندى) (د . حسين فوزى)
- ٢٥٦ عشرة من الخالدين ٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز) (إبراهيم المصرى)
- ٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى) (د . جمال الدين العطيفى)
- ٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول ٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض) (د . على حسنى الحروبولى) ٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

- ٩ المذاهب السياسية المعاصرة ٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
- ٧ (على أدهم) ٢٧٤ المزاعم الصهيونية في فلسطين
- ٥ قضية فلسطين (محمد رفعت) (فتحى فوزى عبد المعطى)
- ١٠٧ تحرير وادى النيل ٢٧٥ الوحدة الإفريقية (محمد أبو الفتوح الخياط)
- ١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان) ٢٩٥ فلسطين قلب العروبة (محمد فيصل عبد المنعم)
- ١٧ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان) ٢٩٦ البترول العربى في المعركة (محمد أمين)
- ٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د . على حسنى الحروبولى) ٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر (لطفى الحولى)
- ٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم للدسوقى البساطى)

- ٣١١ حرب الأفيون (محمد العزب موسى)
 ٣١٩ في مواجهة إسرائيل (د . إسماعيل صبرى عبد الله)
 ٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩ (د . محمد مظهر سعيد)

علم النفس

- ١٠ شفاء النفس (د . يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبي (نظمي خليل)
 ٨٠ الحب والكراهية ٢١٧ لكى تكون سعيداً
 (د . أحمد فؤاد الأهواني) (عبد العزيز جادو)
 ٩٨ الخوف (د . أحمد فؤاد الأهواني) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
 (د . أحمد فؤاد الأهواني) (عبد العزيز جادو)
 ١٣٣ النسيان (د . أحمد فؤاد الأهواني)
 ١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عالج نفسك (د . كمال دسوقي)
 (د . يوسف مراد) ٢٥٧ أمراض نفسية (د . كمال دسوقي)
 ١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقائص والنجاح
 (د . أحمد فؤاد الأهواني) (ضياء الدين أبو الحب)
 ١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى) ٢٩٠ شخصيتك في الميزان
 (د . عبد الكريم دهينة)
 ١٦٦ الأحلام والرؤى (عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
 (د . أبو مدين الشافعى) (محمد زكى عبد القادر)
 ١٧٠ القلق

علوم

- ١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحيات
 (قدرى حافظ طوقان) (د . حسين فرج زين الدين)
 ٢٩ للنار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٨	للعلم والحياة	١٣٢	البساط للسحري
	(د . علي مصطفى مشرفة)		(عبد السلام فهمي)
٤٨	غرائب الحيوانات	١٤٩	بين البقاء والفناء
	(محمد محمد فياض)		(قدرى حافظ طوقان)
٥٢	النار الخالدة (فتاد صروف)	١٥٤	أينشتين والعالم
٥٥	مع الأسماك		(محمد عاطف البرقوقي)
	(د . حسين فرج زين الدين	١٧١	حرب الحمامات
	وموسى باسيلوس)		(د . عبد الحليم منتصر)
٦١	الموج الساحر	١٧٨	الصعود إلى المريخ
	(محمد عاطف البرقوقي)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
٦٦	مملكة العذارى	١٨١	هجرة الحيوان
	(د . أحمد زكى أبو شادى)		(د . أحمد حماد الحسينى)
٧٣	أسرار الحياة	١٨٥	الغبار الذرى
	(د . مصطفى عبد العزيز		(د . محمد جمال الدين الفندى)
	و د . عبد العزيز أمين)	١٨٩	عصر الإلكترونات
٧٥	للعيون فى العلم		(د . جورج وهبه للعنى)
	(قدرى حافظ طوقان)	١٩١	الهزات الزلزالية
٨٤	الوراثة والجنس		(محمد على المغربى)
	(د . عبد الحليم منتصر)	١٩٦	قوى الطبيعة فى خدمتك
٩٠	قصة البترول		(محمد جمال الدين الفندى)
	(يوسف مصطفى الحارونى)	١٩٨	الكلف الشمسى
٩٣	للعالم سنة ٢٠٠٠		(محمد على المغربى)
	(على عبد الجليل راضى)	٢١٤	عصر التليفزيون
١٠٠	قصة للعناصر (إمبابى أحمد)		(د . جورج وهبه للعنى)

- ٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية (د . جورج وهبه للعنى)
 ٢٥٥ للعالم الأخرى (د . محمد جمال الدين الفندى)
 ٢٦٣ عجائب الأرض والسماء (د . محمد جمال الدين الفندى)
 ٣٠٣ من عجائب الحياة (فوزى الشتوى)
 ٣٠٨ البحر والناس (د . سيد حسن شرف الدين)
 ٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول (د . جورج وهبه للعنى)
 ٣٤٥ مذكرات ذرة (عبد المحسن صالح)

جغرافيا ورحلات

- ١٦ دمشق مدينة السحر والشعر ١٧٣ الجزر الخضراء: إندونيسيا (محمد كرد على)
 ٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
 ٤٠ مهد العرب (د . عبد الوهاب عزام)
 ٤٥ مشاهدات في الهند (أمينة السعيد)
 ٦٩ رحلة الربيع (د . طه حسين)
 ٨١ في بلاد النجاشى (د . مراد كامل)
 ١٠٤ أرض المعجزات (د . بنت الشاطى)
 ١٦٣ غرائب من الرحلات (محمد عبد الغنى حسن)
 ١٦٨ القارة العذراء (محمود العزب موسى)
 ١٧٧ صور من إفريقيا (د . محمد محمود الصياد)
 ٢٠٦ جولة في الإقليم الشمالى : سوريا (د . يوسف سمارة)
 ٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربى)
 ٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
 ٢٣٠ الجغرافيون العرب (مصطفى الشهابى)
 ٣١٧ صور باريسية (يوسف فرنسيس)
 ٣٢١ الإنسان الأوروبى فى الجدل واللعب (عبد الستار للطويلة)

الفهرس

صفحة

•	مقدمة
٧	الفصل الأول : طريق إلى الإيمان
٣٩	الفصل الثاني : الطريق إلى مكة
٥٥	الفصل الثالث : الإسلام والعلم
٨٥	الفصل الرابع : الإسلام والإدارة
	الفصل الخامس : القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية في
١١٩	تربية الشباب العربى
١٤٧	الفصل السادس : الإسلام والتطور
١٧٥	الفصل السابع : المسجد . . فن مؤمن
١٩١	الفصل الثامن : أمام لجنة الدستور المصرى
٢٠٣	الفصل التاسع : مناسبات إسلامية
٢٠٥	نصف شعبان فى الدين والحياة
٢١٢	طبيعة الإيمان فى مجتمعنا المعاصر
٢١٦	دراسة الأعداء تربية وعبادة
٢٢١	ثلاثة أصدقاء فى العيد



وصلت في قفرتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة
وستصل في هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها في الأشهر الأخيرة :

يناير ١٩٧٢	:	هؤلاء علموني للأستاذ سلامه موسى
فبراير ١٩٧٢	:	دموع في عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس ١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل ١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمي مراد
مايو ١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونية ١٩٧٢	:	رحلة للشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليو ١٩٧٢	:	بلابل من للشرق للأستاذ صالح جودت
أغسطس ١٩٧٢	:	القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم
سبتمبر ١٩٧٢	:	أغلال القلب للأستاذ إبراهيم المصري
أكتوبر ١٩٧٢	:	أفكار ضد الرصاص للأستاذ محمود عوض
رمضان ١٣٩٢	:	الإسلام والعصر للدكتور عبد العزيز كامل

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٥٢٦٣ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

٤٠٣٩٩٥/١

7



Bibliotheca Alexandrina



0396168

